

کتابخانه آستان قدس

اسم کتاب: توحید مفضل - عربی ... ضمیمه دارد

مصنف / مؤلف: بروایت مفضل بن عمر الجعفی

خطی / چاپی: نسخ ۱۹ سطری

سال طبع یا تحریر: ۱۰۶۳ ق ... عدد اوراق: ۵۵

جزء کتب: اخبار ... شماره: ۴۴۵

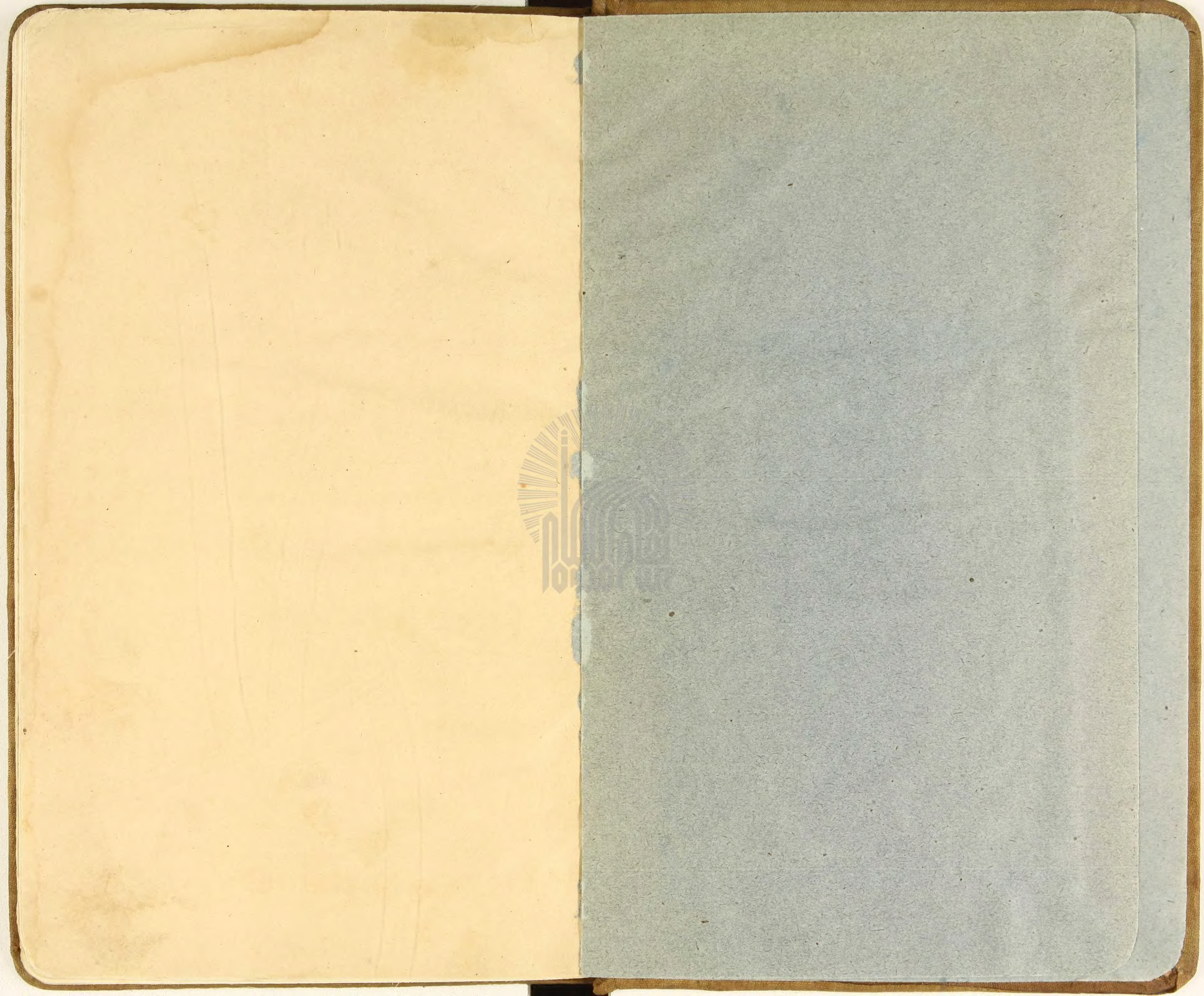
شماره عمومی: ۱۱۵۳ ... شماره قبض:

واقف: میرزا رضا خان نائینی ... تاریخ وقف: مرداد ۱۳۱۱

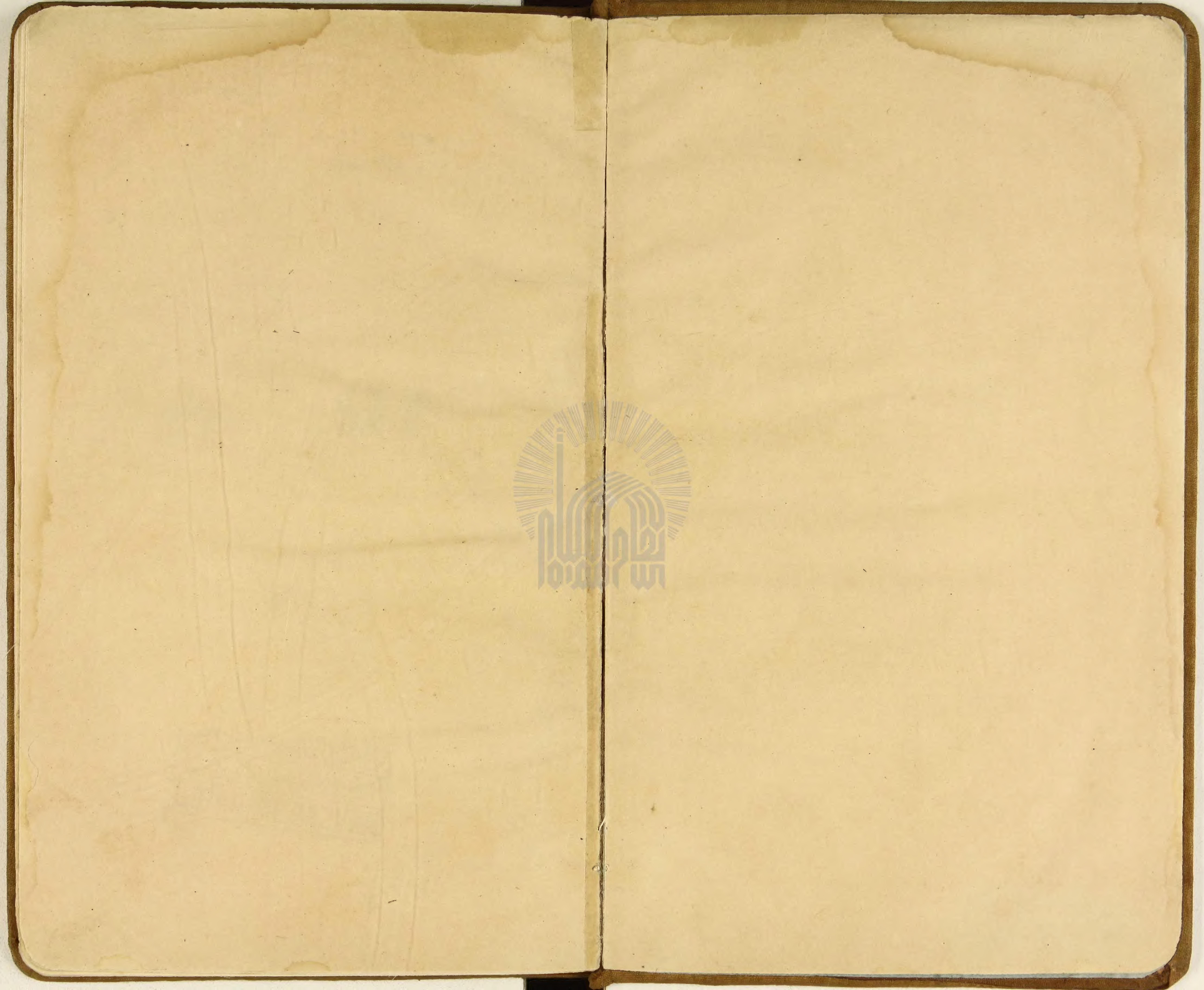
طول: ۲۲ ... عرض: ۱۴ سانتیمتر ... قفسه:

ص ۱۰۱

6







بسم الله الرحمن الرحيم

روى محمد بن سنان قال حدثنا المفضل بن عمر قال كنت ذات يوم
بعد العصر جالسًا فى الروضة بين القبر والمنبر وانا مفكر فيما خص
الله به سيدنا محمدا صلى الله عليه وآله من الشرف والفضايل وما
منحه واعطاه وشرفه به وحباه مما لا يعرفه الجمهور من الامة وما
جهلوه من فضله وعظيم منزلته وخطر مرتبته فانى لكذلك اذ
اقبل ابن ابى العوجاء فجلس بحيث اسمع كلامه فلما استقر به المجلس اذا
رجل من اصحابه قد جاء فجلس اليه فتكلم ابن ابى العوجا فقال
لقد بلغ صاحب هذا القبر العز بكماله وحاز الشرف بجميع خصاله
ونال الحظوة فى كل احواله فقال له صاحبه انه كان فيلسوفا
ادعى المرتبة العظمى والمنزلة الكبرى واتى على ذلك بمعجزات
بهرت العقول وضلت فيها الاحلام وغاصت الالباب على
طلب علمها فى بحار الفكر فرجعت خاسئات وهى حسير فلما
استجاب لدعوته العقلاء والفصحاء والخطباء دخل الناس فى
دينه افواجا فقرن اسمه باسم ناموسه فصار يهتف به

على رؤس الصوامع فى جميع البلدان والمواضع التى انتهت اليها
دعوته وعلت بها كلمته وظهرت فيها حجته برًا وبحرًا وسهلًا
وجبلا فى كل يوم وليلة خمس مرات مرددا فى الاذان والاقامة
ليتجدد كل ساعة ذكره لئلا يخمل امره فقال ابن ابى العوجاء فى
دع ذكر محمد صلى الله عليه وآله فقد تحير فيه عقلى وضل فى
امره فكرى وحدثنا فى ذكر الاصل الذى يمشى به ثم ذكر ابتداء
الاشياء وزعم ان ذلك باهمال لا صنعة فيه ولا تقدير
ولا صانع له ولا مدبر بل الاشياء تتكون من ذاتها بلا مدبر
وعلى هذا كانت الدنيا لم تزل ولا تزال   المفضل فلم املك
نفسى غضبا وغيظا وحنقا فقلت يا عدو الله الحدت فى دين الله
وانكرت البارى جل قدسه الذى خلقك فى احسن تقويم وصورك
فى اتم صورة ونقلك فى احوالك حتى بلغ بك الى حيث انتهيت فلو
تفكرت فى نفسك وصدقك لطيف حسك لوجدت دلايل حسك
الربوبية وآثار الصنعة فيك قايمة وشواهده جل وتقدس
فى خلقك واضحة وبراهينه لك لايحة فقال يا هذا ان كنت
من اهل الكلام كلمناك فان ثبت لك حجة تبعناك وان لم تكن
منهم فلا كلام لك وان كنت من اصحاب جعفر بن محمد الصادق
فما هكذا يخاطبنا ولا بمثل دليلك يجادل فينا ولقد سمع من كلامنا
اكثر مما سمعت فما افحش فى خطابنا ولا تعدى فى جوابنا وانه

نزق كفرح وضرب طاش وخفّ عند الغضب ق

ظ العذر

الحليم الرزين العاقل الرصين لا يعتريه خُرْق ولا طيش ولا نزق و
يسمع كلامنا ويصغي الينا ويستعرف حجتنا حتى اذا استفرغنا ما
عندنا وظننا انا قد قطعناه ادحض حجتنا بكلام يسير وخطاب
قصير يلزمنا به الحجة ويقطع العذر ولا نستطيع لجوابه ردًّا فان
كنت من اصحابه فخاطبنا بمثل خطابه المفضل فخرجت
من المسجد محزونا مفكرا فيما بلي به الاسلام واهله من كفر هذه
العصابة وتعطيلها فدخلت على مولاي صلوات الله عليه فرآني
منكرا فقال ما لك فاخبرته بما سمعت من الدهريين وبما رددت
عليهما فقال لالقين اليك من حكمة الباري جل وعلا وتقدس
اسمه في خلق العالم والسباع والبهايم والطير والهوام وكل ذي
روح من الانعام والنبات والشجرة المثمرة وغير ذات الثمر والحبوب
والبقول الماكول من ذلك وغير الماكول ما يعتبر به المعتبرون ويسكن الى
معرفته المؤمنون ويتحير فيه الملحدون فبكّر علي غدا قال المفضل فانصرفت
من عنده فرحا مسرورا وطالت علي تلك الليلة انتظارا لما وعدني
به فلما اصبحت غدوت فاستؤذن لي فدخلت وقمت بين يديه
فامرني بالجلوس فجلست ثم نهض الى حجرة كان يخلو فيها ونهضت بنهوضه
فقال اتبعني فتبعته فدخل ودخلت خلفه فجلس وجلست بين يديه
فقال يا مفضل كاني بك وقد طالت عليك هذه الليلة انتظارا
لما وعدتك فقلت اجل يا مولاي فقال يا مفضل ان الله كان ولا

نبئ

شيء قبله وهو باق ولا نهاية له فله الحمد على ما الهمنا وله الشكر
على ما منحنا وقد خصنا من العلم باعلاها ومن المعاني باسناها
واصطفانا على جميع الخلق بعلمه وجعلنا مهيمنين عليهم بحكمه
فقلت يا مولاي اتأذن لي ان اكتب ما تشرحه وكنت اعددت
معي ما اكتب فيه فقال لي افعل يا مفضل ان الشكاك جهلوا
الاسباب والمعاني في الخلقة وقصرت افهامهم عن تامل
الصواب والحكمة فيما ذرأ الباري جل قدسه وبرأ من صنوف
خلقه في البر والبحر والسهل والوعر فخرجوا بقصر علومهم الى
الجحود وبضعف بصايرهم الى التكذيب والعنود حتى انكروا خلق
الاشياء وادعوا ان كونها بالاهمال لا صنعة فيها ولا تقدير
ولا حكمة من مدبر ولا صانع تعالى الله عما يصفون وقاتلهم الله
انى يؤفكون فهم في ضلالهم وعماهم وتحيرهم بمنزلة عميان
دخلوا دارا قد بنيت اتقن بناء واحسنه وفرشت باحسن
الفرش وافخره واعدت فيها ضروب الاطعمة والاشربة والملابس
المآرب التي يحتاج اليها لا يستغنى عنها ووضع كل شيء من
ذلك موضعه على صواب من التقدير وحكمة من التدبير فجعلوا
يترددون فيها يمينا وشمالا ويطوفون بيوتها ادبارا واقبالا
محجوبة ابصارهم عنها لا يبصرون بنية الدار وما اعد فيها وربما
عثر بعضهم بالشيء الذي قد وضع موضعه واعد للحاجة اليه

عند بعض بالكسر عثر دالرجل ... ورد الشي وهو يعرف صح

وهو جاهل بالمعنى فيه ولما أُعدّ ولماذا جُعل كذلك فتراه يتخبّط
وذمّ الدار وبانيها فهذه حال هذا الصنف في انكارهم ما انكروا
من امر الخلقة وثبات الصنعة فانّهم لما عَزَبت اذهانهم عن معرفة
الاسباب والعلل في الاشياء صاروا يجولون في هذا العالم
حيارى ولا يفهمون ما هو عليه من اتقان خلقته وحسن صنعته
وصواب تهيئته وربّما وقف بعضهم على الشيء لجهل سببه والارب
فيه فيُسرع الى ذمّه ووصفه بالاحالة والخطاء كالذي اقدمت
عليه المانية الكفرة وجاهرت به الملحدة المارقة الفجرة واشباههم
من اهل الضلال المعللين انفسهم بالمحال فيحق على من انعم الله
عليه بمعرفته وهداه لدينه ووفقه لتأمّل التدبير في صنعة
الخلائق والوقوف على ما خُلقوا له من لطيف التدبير وصواب التعبير
بالدلالة القائمة الدالة على صانعها ان يكثر حمد الله مولاه على ذلك
ويرغب اليه في الثبات عليه والزيادة منه فانه جل اسمه يقول
لئن شكرتم لازيدنكم ولئن كفرتم انّ عذابي لشديد يا مفضل
اول العبر والادلة على الباري جل قدسه تهيئة هذا العالم وتأليف
اجزائه ونظمها على ما هي عليه فانك اذا تأمّلت العالم بفكرك وميّزته
بعقلك وجدته كالبيت المبني المعدّ فيه جميع ما يحتاج اليه عباده
فالسماء مرفوعة كالسقف والارض ممدودة كالبساط والنجوم منضودة
كالمصابيح والجواهر مخزونة كالذخاير وكل شيء فيها لشأنه معدّ والانسان

كالمملّك ذلك البيت والمخوّل جميع ما فيه وضروب النبات مهيئة
لمآربه وصنوف الحيوان مصروفة في مصالحه ومنافعه ففي هذا
دلالة واضحة على ان العالم مخلوق بتقدير وحكمة ونظام وملائمة
وان الخالق له واحد وهو الذي الّفه ونظمه بعضا الى بعض جلّ قدسه
وتعالى جدّه وكرم وجهه ولا اله غيره تعالى عمّا يقول الجاحدون
وجلّ وعظم عمّا ينتحله الملحدون نبتدئ يا مفضل بذكر خلق الانسان
فاعتبر به فاوّل ذلك ما يدبّر به الجنين في الرحم وهو محجوب في ظلمات
ثلث ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة حيث لا حيلة عنده
في طلب غذاء ولا دفع اذى ولا استجلاب منفعة ولا دفع مضرة
فانه يجري اليه من دم الحيض ما يغذوه كما يغذو الماء النبات فلا
يزال ذلك غذاءه حتى اذا كمل خلقه واستحكم بدنه وقوي اديمه
على مباشرة الهواء وبصره على ملاقاة الضياء هاج الطلق بامّه
فازعجه اشدّ ازعاج واعنفه حتى يولد واذا ولد صرف ذلك
الدم الذي كان يغذوه من دم امّه الى ثدييها فانقلب الطعم
واللون الى ضرب آخر من الغذاء وهو اشدّ موافقة للمولود من
الدم فيوافيه في وقت حاجته اليه فحين يُولَد قد تلمّظ وحرّك
شفتيه طلبا للرضاع فهو يجد ثديي امّه كالاداوتين المعلّقتين
لحاجته فلا يزال يتغذّى باللبن ما دام رطب البدن رقيق الامعاء
لين الاعضاء حتى اذا تحرّك واحتاج الى غذاء فيه صلابة

ليشتد ويقوى بدنه طلعت له الطواحين من الاسنان والاضراس
ليمضغ به الطعام فيلين عليه ويسهل له اساغته فلا يزال كذلك
حتى يدرك فاذا ادرك وكان ذكراً طلع الشعر في وجهه فكان ذلك
علامة الذكر وعز الرجل الذي يخرج به من حد الصبى وشبه النساء
وان كانت انثى يبقى وجهها نقياً من الشعر ليبقى لها البهجة والنضارة
التي تحرك الرجال لما فيه دوام النسل وبقاءه اعتبر يا مفضل فيما
يدبر به الانسان في هذه الاحوال المختلفة هل ترى يمكن ان يكون
بالاهمال افرايت لو لم يجر اليه ذلك الدم وهو في الرحم الم يكن سيذوي هما ك
ويجف كما يجف النبات اذا فقد الماء ولو لم يزعجه المخاض عند استحكامه
الم يكن سيبقى في الرحم كالموؤد في الارض ولو لم يوافقه اللبن مع
ولادته الم يكن سيموت جوعا او يغتذي بغذاء لا يلايمه ولا يصلح
عليه بدنه ولو لم تطلع عليه الاسنان في وقتها الم يكن سيمتنع
عليه مضغ الطعام واساغته او يقيمه على الرضاع فلا يشتد
بدنه ولا يصلح لعمل ثم كان تشتغل امه بنفسه عن تربية غيره
من الاولاد ولو لم يخرج الشعر في وجهه في وقته الم يكن سيبقى في هيئة
الصبيان والنساء فلا ترى له جلالة ولا وقارا فقال المفضل فقلت
يا مولاي فقد رايت من يبقى على حالته ولا ينبت الشعر في وجهه
وان بلغ حال الكبر فقال ذلك بما قدمت ايديهم وان الله ليس بظلام
للعبيد فمن هذا الذي يرصده حتى يوافيه بكل شيء من هذه المآرب

الا الذي انشأه خلقا بعد ان لم يكن ثم توكل له بمصلحته بعد
ان كان فان كان الاهمال ياتي بمثل هذا التدبير فقد يجب ان
يكون العمد والتقدير ياتيان بالخطاء والمحال لانهما ضد الاهمال
وهذا فظيع من القول وجهل من قائله لان الاهمال لا ياتي بالصواب
والتضاد لا ياتي بالنظام تعالى الله عما يقول الملحدون
علوا كبيرا ولو كان المولود يولد فهما عاقلا لانكر العالم عند ولادته
ولبقي حيران تايه العقل اذا راى ما لم يعرف وورد عليه ما لم ير مثله
من اختلاف صور العالم والطير من البهايم الى غير ذلك مما يشاهده
ساعة بعد ساعة ويوما بعد يوم واعتبر ذلك بان من سبي
من بلد الى بلد وهو عاقل يكون كالواله الحيران فلا يسرع في
تعلم الكلام وقبول الادب كما يسرع الذي يسبى صغيرا غير عاقل
ثم لو ولد عاقلا كان يجد غضاضة اذا راى نفسه محمولا
مرضعا معصبا بالخرق مسجى في المهد لانه لا يستغني عن هذا
كله لرقة بدنه ورطوبته حين يولد ثم كان لا يوجد له من
الحلاوة والوقع من القلوب ما يوجد للطفل فصار يخرج الى
الدنيا غبيا غافلا عما فيه اهله فيلقى الاشياء بذهن ضعيف
ومعرفة ناقصة ثم لا يزال يزيد في المعرفة قليلا قليلا وشيئا
بعد شيء وحالا بعد حال حتى يالف الاشياء ويتمرن ويستمر
عليها فيخرج من حد التامل لها والحيرة فيها الى التصرف والاضطرار

الى المعاش بعقله وحيلته الى الاعتبار والطاعة والسهو والغفلة
والمعصية وفى هذا ايضا وجوه آخر فانه لو كان يولد تام العقل
مستقلا بنفسه لذهب موضع حلاوة تربية الاولاد وما قدر
ان يكون للوالدين فى الاشتغال بالولد من المصلحة وما يوجب
التربية للآباء على الابناء من المكافات بالبر والعطف عليهم عند
حاجتهم الى ذلك منهم ثم كان الاولاد لا يألفون آباءهم ولا يألف
الآباء ابناءهم لان الاولاد كانوا يستغنون عن تربية الآباء
وحياطتهم فيتفرقون عنهم حين يولدون فلا يعرف الرجل اباه و
امه ولا يمتنع من نكاح امه واخته وذوات المحارم منه اذ
كان لا يعرفهن واقل ما فى ذلك من القباحة بل هو اشنع واعظم
وافظع واقبح وابشع لو خرج المولود من بطن امه وهو يعقل
ان يرى منها ما لا يحل له ولا يحسن به ان يراه افلا ترى كيف اقيم
كل شيء من الخلقة على غاية الصواب وخلا من الخطاء دقيقه
وجليله اعرف يا مفضل ما للاطفال فى البكاء من المنفعة واعلم
ان فى ادمغة الاطفال رطوبة ان بقيت فيها احدثت عليهم احداثا
جليلة وعللا عظيمة من ذهاب البصر وغيره فالبكاء يسيل
تلك الرطوبة من رؤسهم فيعقبهم ذلك الصحة فى ابدانهم والسلامة
فى ابصارهم افليس قد جاز ان يكون الطفل ينتفع بالبكاء ووالداه
لا يعرفان ذلك فهما دائبان ليسكتانه ويتوخيان فى الامور

مرضاته

لعلها موضع [illegible] / كما لفظ موضع (ل)

[illegible]

مرضاته لئلا يبكى وهما لا يعلمان ان البكاء اصلح له واجمل
عاقبة فهكذا يجوز ان يكون فى كثير من الاشياء منافع لا يعرفها
القائلون بالاهمال ولو عرفوا ذلك لم يقضوا على الشيء انه لا منفعة
فيه من اجل انهم لا يعرفونه ولا يعلمون السبب فيه فان كل ما لا
يعرفه المنكرون يعرفه العارفون وكثير مما يقصر عنه علم المخلوقين
محيط به علم الخالق جل قدسه وعلت كلمته فاما ما يسيل من افواه
الاطفال من الريق ففى ذلك خروج الرطوبة التى لو بقيت فى ابدانهم
لاحدثت عليهم الامور العظيمة كمن تراه قد غلبت عليه الرطوبة
فاخرجته الى حد البله والجنون والتخليط الى غير ذلك من الامراض
المتلفة كالفالج واللقوة وما اشبههما فجعل الله تلك الرطوبة
تسيل من افواههم فى صغرهم لما لهم فى ذلك من الصحة فى كبرهم
فتفضل على خلقه بما جهلوه ونظر لهم بما لم يعرفوه ولو عرفوا نعمه
عليهم لشغلهم ذلك عن التمادى فى معصيته فسبحانه ما اجل
نعمته واسبغها على المستحقين وغيرهم من خلقه وتعالى عما
يقول المبطلون علوا كبيرا انظر الآن يا مفضل كيف جعلت آلات
الجماع فى الذكر والانثى جميعا على ما يشاكل ذلك فجعل للذكر آلة
ناشرة تمتد حتى تصل النطفة الى الرحم اذ كان محتاجا الى ان يقذف
ماءه فى غيره وخلق للانثى وعاء قعر ليشتمل على الماءين جميعا
ويحتمل الولد ويتسع له ويصونه حتى يستحكم اليس ذلك من تدبير

يعلمه

حكيم لطيف سبحانه وتعالى عمّا يشركون فكّر يا مفضل فى اعضاء البدن
اجمع وتدبير كلّ منها للارب فاليدان للعلاج والرجلان للسعى
والعينان للاهتداء والفم للاغتذاء والمعدة للهضم والكبد للتخليص
والمنافذ لتنفيذ الفضول والاوعية لحملها والفرج لاقامة النسل
وكذلك جميع الاعضاء اذا تأمّلتها واعملت فكرك فيها ونظرك
وجدت كل شئ منها قد قدّر لشئ على صواب وحكمة قال المفضل
فقلت يا مولاى ان قوما يزعمون ان هذا من فعل الطّبيعة
فقال سلهم عن هذه الطّبيعة اهى شئ له علم وقدرة على مثل
هذه الافعال ام ليست كذلك فان اوجبوا لها العلم والقدرة
فما يمنعهم من اثبات الخالق فان هذه صنعته وان زعموا انها
تفعل هذه الافعال بغير علم ولا عمد وكان فى افعالها ما قد
تراه من الصّواب والحكمة علم ان هذا الفعل للخالق الحكيم
وان الّذى سمّوه طبيعة هو سنّة فى خلقه الجارية على ما اجراها
عليه فكّر يا مفضل فى وصول الغذاء الى البدن وما فيه من التّدبير
فان الطّعام يصير الى المعدة فتطبخه وتبعث بصفوه الى الكبد
فى عروق دقاق واشجة بينهما قد جعلت كالمصفى للغذاء لكيلا
يصل الى الكبد منه شئ فينكاها وذلك ان الكبد رقيقة لا تحتمل
العنف ثم ان الكبد تقبله فيستحيل بلطف التّدبير دما وينفذه
الى البدن كله فى مجارى مهيّاة لذلك بمنزلة المجارى التى تهيّأ

ثخالعدة وفيها قلة وجع والقرح نكاها ق

للماء حتى يطّرد فى الارض كلها وينفذ ما يخرج منه من الخبث
والفضول الى مفايض قد اعدّت لذلك فما كان منه من جنس المرّة
الصفراء جرى الى المرارة وما كان من جنس السوداء جرى الى الطّحال
وما كان من البلّة والرّطوبة جرى الى المثانة فتأمّل حكمة التّدبير
فى تركيب البدن ووضع هذه الاعضاء منه مواضعها واعداد
هذه الاوعية فيه لتحمل تلك الفضول لئلا تنتشر فى البدن فتسقمه
وتنهكه فتبارك من احسن التّقدير واحكم التّدبير وله الحمد كما هو
اهله ومستحقّه قال المفضل صف نشوّ الابدان ونموّها حالا
بعد حال حتى تبلغ التمام والكمال فقال عليه السّلام اوّل التصوير
الجنين فى الرحم حيث لا تراه عين ولا تناله يد ويدبّره حتى يخرج سويا
مستوفيا جميع ما فيه قوامه وصلاحه من الاحشاء والجوارح
والعوامل الى ما فى تركيب اعضائه من العظام واللّحم والشحم
والمخّ والعصب والعروق والغضاريف فاذا خرج الى العالم تراه
كيف ينمى بجميع اعضائه وهو ثابت على شكل وهيئة لا تتزايد
ولا تنقص الى ان يبلغ اشدّه ان مدّ فى عمره او يستوفى مدّته
قبل ذلك هل هذا الا من لطيف التّدبير والحكمة يا مفضل
انظر الى ما خصّ به الانسان فى خلقه تشريفا وتفضيلا
على البهائم فانه خلق ينتصب قائما ويستوى جالسا ليستقبل
الاشياء بيديه وجوارحه ويمكنه العلاج والعمل بهما

الاشياء تقود اربحرص

تهلكه الحرّ اذا صدته واضعفه ونقصت لحمه

ولو كان مكبوبا على وجهه كذات الاربع لما استطاع ان يعمل
شيئا من الاعمال انظر الآن يا مفضل الى هذه الحواس التى خص
بها الانسان فى خلقه وشرف بها على غيره كيف جعلت العينان
فى الرأس كالمصابيح فوق المناره ليتمكن من مطالعة الاشياء
ولم يجعل فى الاعضاء التى تحتهن كاليدين والرجلين فتعرضها الآفات
وتصيبها من مباشرة العمل والحركة ما يعللها ويؤثر فيها وينقص
منها ولا فى الاعضاء التى وسط البدن كالبطن والظهر فيعسر
تقلبها واطلاعها نحو الاشياء فلما لم يكن لها فى شيء من هذه
الاعضاء موضع كان الرأس اسنى المواضع للحواس وهو بمنزلة الصومعة
لها فجعل الحواس خمسا تلقى خمسا لكى لا يفوتها شيء من المحسوسات
فخلق البصر ليدرك الالوان فلو كانت الالوان ولم يكن بصر يدركها
لم يكن فيها منفعة وخلق السمع ليدرك الاصوات فلو كانت
الاصوات ولم يكن سمع يدركها لم يكن فيها ارب وكذلك ساير
الحواس ثم هذا يرجع متكافيا فلو كان بصر ولم يكن الالوان لما
كان للبصر معنى ولو كان سمع ولم يكن اصوات لم يكن للسمع موضع
فانظر كيف قدر بعضها يلقى بعضا فجعل لكل حاسة محسوسا يعمل
فيه ولكل محسوس حاسة تدركه ومع هذا فقد جعلت
اشياء متوسطة بين الحواس والمحسوسات لا يتم الحواس الا بها
كمثل الضياء والهواء فانه لو لم يكن ضياء يظهر اللون للبصر لم يكن

البصر

البصر يدرك اللون ولو لم يكن هواء يؤدى الصوت الى السمع لم
يكن السمع يدرك الصوت فهل يخفى على من صح نظره واعمل
فكره ان مثل هذا الذى وصفت من تهيئة الحواس والمحسوسات
بعضها يلقى بعضا وتهيئة اشياء اخر بها يتم الحواس لا يكون الا
بعمد وتقدير من لطيف خبير فكر يا مفضل فيمن عدم البصر من الناس
وما يناله من الخلل فى اموره فانه لا يعرف موضع قدمه ولا يبصر
ما بين يديه فلا يفرق بين الالوان وبين المنظر الحسن والقبيح ولا يرى
حفرة ان هجم عليها ولا عدوا ان اهوى اليه بسيف ولا يكون
له سبيل الى ان يعمل شيئا من هذه الصناعات مثل الكتابة
والتجارة والصياغة حتى انه لولا نفاذ ذهنه لكان بمنزلة الحجر
الملقى وكذلك من عدم السمع يختل فى امور كثيرة فانه يفقد روح
المخاطبة والمحاورة ويعدم لذة الاصوات واللحون الشجية
المطربة ويعظم المؤنة على الناس فى محاورته حتى يتبرموا به ولا يسمع
شيئا من اخبار الناس واحاديثهم حتى يكون كالغايب وهو
شاهد او كالميت وهو حى فاما من عدم العقل فانه يلحق بمنزلة
البهايم بل يجهل كثيرا مما يهتدى اليه البهايم افلا ترى كيف صارت
الجوارح والعقل وساير الخلال التى بها صلاح الانسان والتى
لو فقد منها شيئا لعظم ما يناله فى ذلك من الخلل يوافى خلقه
على التمام حتى لا يفقد شيئا منها فلم كان كذلك الا لانه خلق

بعلم وتقدير قال المفضل فقلت فلم صار بعض الناس يفقد شيئا ويقدر
من هذه الجوارح فينا له في ذلك مثل ما وصفته يا مولاي قال ع
ذلك للتأديب والموعظة لمن يحل به ذلك به ولغيره بسببه كما
قد يؤدب الملوك الناس للتنكيل والموعظة فلا ينكر ذلك عليهم
بل يحمل من رأيهم ويصوب من تدبيرهم ثم ان للذين تنزل بهم هذه يحمد
البلايا من الثواب بعد الموت ان شكروا وانابوا ما يستصغرون
معه ما ينالهم منها حتى انهم لو خيروا بعد الموت لاختاروا
ان يردوا الى البلايا ليزدادوا من الثواب فكر يا مفضل في الاعضا
التي خلقت افرادا وازواجا وما في ذلك من الحكمة والتقدير
والصواب في التدبير فالرأس مما خلق فردا ولم يكن للانسان
صلاح في ان يكون اكثر من واحد الا ترى انه لو اضيف الى رأس
الانسان رأس آخر لكان ثقلا عليه من غير حاجة اليه لان
الحواس التي يحتاج اليها مجتمعة في رأس واحد ثم كان الانسان
ينقسم قسمين لو كان له رأسان فان تكلم من احدهما كان
الاخر معطلا لا ارب فيه ولا حاجة اليه وان تكلم منهما جميعا
بكلام واحد كان احدهما فضلا لا يحتاج اليه وان تكلم باحدهما
بغير الذي تكلم به من الآخر لم يدر السامع باي ذلك ياخذ واشباه
هذا من الاخلاط واليدان مما خلق ازواجا ولم يكن للانسان الاختلال
خير في ان يكون له يد واحدة لان ذلك كان يخل به فيما يحتاج

الى معالجته من الاشياء الا ترى ان النجار والبناء لو شلت
احدى يديه لا يستطيع ان يعالج صناعته وان تكلف ذلك لم
يحكمه ولم يبلغ منه ما يبلغه اذا كانت له يدان يتعاونان
على العمل اطل الفكر يا مفضل في الصوت والكلام وتهيئة
الآلة في الانسان فالحنجرة كالانبوبة لخروج الصوت واللسان
والشفتان والاسنان لصياغة الحروف والنغم الا ترى ان
من سقطت اسنانه لم يقم السين ومن سقطت شفته لم يصحح
الفاء ومن ثقل لسانه لم يفصح الراء واشبه شيء بذلك المزمار
الاعظم فالحنجرة يشبه المزمار والرية يشبه الزق الذي قصبة
ينفخ فيه لتدخل الريح والفضلات التي تقبض على الرية ليخرج الصوت العضلات
كالاصابع التي تقبض على الزق حتى تجري الريح في المزمار والشفتان تخرج
والاسنان التي تصوغ الصوت حروفا ونغما كالاصابع التي
يختلف في فم المزمار فتصوغ صفيره الحانا غير انه وان كان مخرج
الصوت يشبه المزمار بالدلالة والتعريف فان المزمار بالحقيقة
هو المشبه بمخرج الصوت قد انبأتك بما في الاعضاء من
الغناء في صنعة الكلام واقامة الحروف وفيها مع الذي ذكرت
لك مآرب اخرى فالحنجرة ليسلك فيها هذا النسيم الى الرية
فتروح عن الفؤاد بالنفس الدائم المتتابع الذي لو احتبس شيئا
يسيرا لهلك الانسان وباللسان تذاق الطعوم فيميز بينها

ويعرف كل واحد منهما حلوها من مرّها وحامضها من مُزّها
ومالحها من عذبها وطيّبها من خبيثها وفيه مع ذلك معونة على
اساغة الطّعام والشّراب والاسنان لمضغ الطّعام حتّى يلين
ويسهل اساغته وهي مع ذلك كالسند للشفتين تمسكهما وتدعمهما
من داخل الفم واعتبر ذلك بانك ترى من سقطت اسنانه مسترخي
الشفة ومضطربها وبالشفتين يترشّف الشراب حتّى يكون الذي
يصل الى الجوف منه بقصد وقدر لا يثجّ ثجّاً فيغصّ به الشارب
او ينكا في الجوف ثم هما بعد ذلك كالباب المطبق على الفم يفتحهما الا نسان
اذا شاء ويطبقهما اذا شاء ففيما وصفنا من هذا بيان ان كل واحد
من هذه الاعضاء يتصرّف وينقسم الى وجوه من المنافع كما تتصرّف
الاداة الواحدة في اعمال شتّى وذلك كالفاس يستعمل في النجارة والحفر
وغيرهما من الاعمال لو رايت الدماغ اذا كشف عنه لرايته قد لفّ
بحجب بعضها فوق بعض لتصونه من الاعراض وتمسكه فلا يضطرب
ولرايت عليه الجمجمة بمنزلة البيضة كيما تقيه هدّ الصدمة والنكبة
التي ربما وقعت في الراس ثم قد جُلّلت الجمجمة بالشعر حتّى صار بمنزلة الفرو
للراس يستره من شدّة الحرّ والبرد فمن حصّن الدماغ هذا التحصين
الا الذي خلقه وجعله ينبوع الحس والمستحق للحيطة والصيانة بعلو
منزلته من البدن وارتفاع درجته وخطر مرتبته تامّل
الجفن على العين كيف جعل كالغشاء والاشفار كالاشراج واولجها

شراب مُزّ ورمان مُزّ بين الحلو والحامض ص

ساغ الشراب يسوغ سوغاً اي سهل مدخله في الحلق ص

مجّ الماء والدم اي مجّه مجّاً اذا لفظه ص

نكيت في العدو نكاية اذا قتلت فيهم وجرحت ص

الحفظ

العين في

العين في هذا الغار واظلها بالحجاب وما عليه من الشعر يا مفضل
من غيّب الفؤاد في جوف الصدر وكساه المدرعة التي هي غشاوة
وحصّنه بالجوانح وما عليها من اللحم والعصب وما عليها لئلا يصل
اليه ما ينكاه من جعل في الحلق منفذين احدهما لمخرج الصوت
وهو الحلقوم المتصل بالرية والآخر منفذ للغذاء وهو المريء المتصل
بالمعدة الموصل الغذاء اليها وجعل على الحلقوم طبقاً يمنع الطعام
ان يصل الى الرية فيقتل من جعل الرية مروحة الفؤاد لا تفتر ولا تخل
لكيلا تتحيّز الحرارة في الفؤاد فتؤدي الى التلف من جعل لمنافذ
البول والغايط اشراجاً تضبطها لئلا يجري جرياناً دائماً فيفسد
على الانسان عيشه فكم عسى ان يحصى المحصي من هذا بل الذي
لا يحصى منه ولا يعلمه الناس اكثر من جعل المعدة عصبانية
شديدة وقدّرها لهضم الطعام الغليظ ومن جعل الكبد
رقيقة ناعمة لقبول الصفو اللطيف من الغذاء ولتهضم و
تعمل ما هو الطف من عمل المعدة الا الله القادر اترى الاهمال
ياتي بشيء من ذلك كلا بل هو تدبير من مدبّر حكيم قادر عالم
بالاشياء قبل خلقه اياها لا يعجزه شيء وهو اللطيف الخبير
فكّر يا مفضل لم صار المخ الرقيق محصّناً في انابيب العظام هل
ذلك الا ليحفظه ويصونه لم صار الدم السائل محصوراً في
العروق بمنزلة الماء في الظروف الا لتضبطه فلا يفيض لم

صارت الاظفار على اطراف الاصابع الا وقاية لها ومعونة على
العمل لم صار داخل الاذن ملتويا كهيئة الكوكب الا ليطرد فيه
الصوت حتى ينتهي الى السمع وليتكسر حمية الريح فلا ينكا في السمع لم
حمل الانسان على فخذيه واليتيه هذا اللحم الا ليقيه من الارض (عليها)
فلا يتألم من الجلوس عليهما كما يألم من نحل جسمه وقل لحمه اذا
لم يكن بينه وبين الارض حائل يوقيه صلابتها من جعل الانسان (حائل)
ذكرا وانثى الا من خلقه متناسلا ومن خلقه متناسلا الا من
خلقه مؤملا ومن اعطاه الا ت العمل الا من خلقه عاملا
ومن خلقه عاملا الا من جعله محتاجا ومن جعله محتاجا
الا من ضربه بالحاجة ومن ضربه بالحاجة الا من توكل بتقويمه من
خصه بالفهم الا من اوجب له الجزاء من وهب له الحيلة الا من
ملكه الحول ومن ملكه الحول الا من الزمه الحجة من يكفيه ما لا
يبلغه حيلته الا من لم يبلغ مدى شكره فكر وتدبر ما وصفته (تبلغه)
هل تجد الاهمال على هذا النظام والترتيب تبارك الله عما يصفون
اصف لك الان يا مفضل الفؤاد اعلم ان فيه ثقبا موجهة
نحو الثقب التي في الرية تروح عن الفؤاد حتى لو اختلفت تلك
الثقب وتزايل بعضها عن بعض لما وصل الروح الى الفؤاد ولهلك (الثقب)
الانسان افيستجيز ذو فكر وروية ان يزعم ان مثل هذا يكون
بالاهمال ولا يجد شاهدا من نفسه تنزعه عن هذا القول لو ان

يزجره

فردا من مصراعين فيه كالوتد اكنت تتوهم انه جعل كذلك
بلا معنى بل كنت تعلم ضرورة انه مصنوع يلقى فردا آخر فتبرزه
ليكون في اجتماعهما ضرب من المصلحة وهكذا تجد الذكر من
الحيوان كانه فرد من زوج مهيئا من فرد انثى فيلتقيان لما
فيه من دوام النسل وبقائه فتبا وخيبة وتعسا لمنتحلي الفلسفة
كيف عميت قلوبهم عن هذه الخلقة العجيبة حتى انكروا التدبير
والعمد فيها لو كان فرج الرجل مسترخيا كيف كان يصل الى
قعر الرحم حتى يفرغ النطفة فيه ولو كان منعظا ابدا كيف كان
الرجل يتقلب في الفراش او يمشي بين الناس وشيء شاخص امامه
ثم يكون في ذلك مع قبح المنظر تحريك الشهوة في كل وقت
من الرجال والنساء جميعا فقدر الله جل اسمه ان يكون
اكثر ذلك لا يبدو للبصر في كل وقت ولا يكون على الرجال منه
مؤونة بل جعل فيه القوة على الانتصاب وقت الحاجة الى ذلك
لما قدر ان يكون فيه من دوام النسل وبقائه اعتبر الان
يا مفضل بعظم النعمة على الانسان في مطعمه ومشربه وتسهيل
خروج الاذى اليس من حسن التقدير في بناء الدار ان يكون
الخلاء في استر موضع فيها فهكذا جعل الله سبحانه المنفذ المهيأ (منها)
للخلاء من الانسان في استر موضع منه فلم يجعله بارزا من خلفه
ولا ناشرا من بين يديه بل هو مغيب في موضع غامض من البدن

مستور محجوب يلتقي عليه الفخذان وتحجبه الاليتان بما عليهما
من اللحم فيواريانه فاذا احتاج الانسان الى الخلاء وجلس تلك
الجلسة الفى ذلك المنفذ منه منصبا مهيئا لانحدار الثفل فتبارك الله
من تظاهرت الآؤه ولا تحصى نعماؤه فكر يا مفضل في هذا الطواحن
التي جعلت للانسان فبعضها حداد لقطع الطعام وقرضه و
بعضها عراض لمضغه ورضه فلم ينقص واحد من الصفتين اذ
كان محتاجا اليهما جميعا تأمل واعتبر بحسن التدبير في خلق
الشعر والاظفار فانهما لما كانا مما يطول ويكثر حتى يحتاج الى تخفيفه
اولا فاولا جعلا عديمي الحس لئلا يولم الانسان الاخذ منهما
ولو كان قص الشعر وتقليم الاظفار مما يوجد له مس ذلك لكان
الانسان من ذلك بين مكروهين اما ان يدع كل واحد
منهما حتى يطول فيثقل عليه واما ان يخففه بوجع والم يتألم
منه قال المفضل فقلت فلم لم يجعل ذلك خلقة لا تزيد فيحتاج
الانسان الى النقصان منه فقال عليه السلام ان لله تبارك
اسمه في ذلك على العبد نعما لا يعرفها فيحمد عليها اعلم ان آلام
البدن وادواءه تخرج بخروج الشعر في مسامه وبخروج الاظفار
من اناملها ولذلك امر الانسان بالنورة وحلق الراس
وقص الاظفار في كل اسبوع ليسرع الشعر والاظفار
في النبات فتخرج الآلام والادواء بخروجهما واذا طالا تحيرا

الصنفين

وقل خروجهما فاحتبست الآلام والادواء في البدن فاحدثت
عللا واوجاعا ومنع مع ذلك الشعر من المواضع التي يضر بالانسان
ويحدث عليه الفساد والضرر لو نبت الشعر في العين الم يكن
سيعمي البصر ولو نبت في الفم الم يكن سيغص على الانسان طعامه
وشرابه ولو نبت في باطن الكف الم يكن سيعوق عن صحة
اللمس وبعض الاعمال ولو نبت في فرج المراة وعلى ذكر الرجل
الم يكن سيفسد عليهما لذة الجماع فانظر كيف تنكب
الشعر هذه المواضع لما في ذلك من المصلحة ثم ليس هذا في
الانسان فقط بل تجده في البهائم والسباع وسائر المتنا
فانك ترى اجسامهن مجللة بالشعر وترى هذه المواضع
خالية منه لهذا السبب بعينه فتأمل الخلقة كيف تتحرز
وجوه الخطاء والمضرة وتأتي بالصواب والمنفعة ان المنانية
واشباههم حين اجتهدوا في عيب الخلقة والعمد عابوا
الشعر النابت على الركب والابطين ولم يعلموا ان ذلك
من رطوبة تنصب الى هذه المواضع فينبت فيها الشعر كما ينبت
العشب في مستنقع المياه افلا ترى الى هذه المواضع استر واهيأ
لقبول تلك الفضلة من غيرها ثم ان هذه تعد مما يحمل
الانسان من مؤنة هذا البدن وتكاليفه لما له في ذلك
من المصلحة فان اهتمامه بتنظيف بدنه واخذ ما يعلوه

سلالت

المانية

من الشعر مما يكسر به بشرته ويكف عاديته ويشغله عن بعض ما
يخرجه اليه الفراغ من الاشر والبطالة تامل الريق وما فيه من
المنفعة فانه جعل يجرى جريانا دايما الى الفم ليبل الحلق واللهوات
فلا يجف فان هذه المواضع لو جعلت كذلك كان فيه هلاك
الانسان ثم كان لا يستطيع طعاما اذا لم يكن في الفم بلة
تنفذه تشهد بذلك المشاهدة واعلم ان الرطوبة مطية الغذاء
وقد يجرى من هذه البلة الى موضع آخر من المرة فيكون في ذلك
صلاح تام للانسان ولو يبست المرة لهلك الانسان ولقد قال قوم من جهلة المتكلمين وضعفة
المتفلسفين بقلة التميز وقصور العلم لو كان بطن الانسان كهيئة
القبا يفتحه الطبيب اذا شاء فيعاين ما فيه ويدخل يده فيعالج
ما اراد علاجه الم يكن اصلح من ان يكون مصمتا محجوبا عن البصر
واليد لا يعرف ما فيه الا بدلالات غامضة كمثل النظر الى البول
وحس العرق وما اشبه ذلك مما يكثر فيه الغلط والشبهة
حتى ربما كان ذلك سببا للموت فلو علم هؤلاء الجهلة ان هذا
لو كان هكذا كان اول ما فيه انه كان يسقط عن الانسان
الوجل من الامراض والموت وكان يستشعر البقاء ويغتر
بالسلامة فيخرجه ذلك الى العتو والاشر ثم كانت الرطوبات
التى في البطن تترشح وتتحلب فيفسد على الانسان مقعده و
مرقده وثياب بذلته وزينته بل كان يفسد عليه عيشه ثم

ان المعدة والكبد والفؤاد انما يفعل افعالها بالحرارة الغريزية
التى جعلها محتبسة في الجوف فلو كان في البطن فرج ينفتح حتى يصل
البصر الى رؤيته واليد الى علاجه لوصل برد الهواء الى الجوف فمازج
الحرارة الغريزية وبطل عمل الاحشاء فكان في ذلك هلاك الانسان
افلا ترى ان كلما تذهب اليه الاوهام سوى ما جاءت به الخلقة
خطاء وخطل فكر يا مفضل في الافعال التى جعلت في الانسان
من الطعم والنوم والجماع وما دبر فيها فانه جعل لكل واحد
منها في الطباع نفسه محرك تقتضيه وتستحث به فالجوع يقتضى
الطعم الذى به حياة البدن وقوامه والكرى يقتضى النوم الذى
فيه راحة البدن واجمام قواه والشبق يقتضى الجماع الذى
فيه دوام النسل وبقاؤه ولو كان الانسان انما يصير الى
اكل الطعام لمعرفته بحاجة بدنه اليه ولم يجد من طباعه
شيئا يضطره الى ذلك كان خليقا ان يتوانى عنه احيانا
بالتثقل والكسل حتى ينحل بدنه فيهلك كما يحتاج الواحد الى
الدواء لشىء مما يصلح به بدنه فيدافع به حتى يؤديه ذلك
الى المرض والموت وكذلك لو كان انما يصير الى النوم بالتفكر
في حاجته الى راحة البدن واجمام قواه كان عسى ان
يتثاقل عن ذلك فيدفعه حتى ينهك بدنه ولو كان انما يتحرك
للجماع بالرغبة في الولد كان غير بعيد ان يفتر عنه حتى

يقل النسل او ينقطع فان من الناس من لا يرغب في الولد ولا يحفل
به فانظر كيف جعل لكل واحد من هذه الافعال التي بها قوام
الانسان وصلاحه محرك من نفس الطبع يحركه لذلك ويحدوه
عليه واعلم ان في الانسان قوى اربعا قوة جاذبة تقبل الغذاء
وتورده على المعدة وقوة ممسكة تحبس الطعام حتى تفعل فيه
الطبيعة فعلها وقوة هاضمة وهي التي تطبخه وتستخرج صفوه و
تبثه في البدن وقوة دافعة تدفعه وتحدر الثفل الفاضل
بعد اخذ الهاضمة حاجتها ففكر في تقدير هذه القوى الاربعة
التي في البدن وافعالها وتقديرها للحاجة اليها والارب
فيها وما في ذلك من التدبير والحكمة ولولا الجاذبة كيف يتحرك
الانسان لطلب الغذاء التي بها قوام البدن ولولا الماسكة
كيف كان يلبث الطعام في الجوف حتى تهضمه المعدة ولولا
الهاضمة كيف كان ينطبخ حتى يخلص منه الصفو الذي يغذو
البدن ويسد خلله ولولا الدافعة كيف كان الثفل الذي تخلفه
الهاضمة يندفع ويخرج اولا فاولا افلا ترى كيف وكل الله
سبحانه بلطيف صنعه وحسن تقديره هذه القوى بالبدن
والقيام بما فيه صلاحه وسامثل لك في ذلك مثالا ان البدن
بمنزلة دار الملك وله فيها حشم وصبية وقوام موكلون
بالدار فواحد لاقضاء حوائج الحشم وايرادها عليهم وآخر لقبض ما

حوائج

يرد وخزنه الى ان يعالج ويهيا وآخر لعلاج ذلك وتهيئته
وتفريقه واخر لتنظيف ما في الدار من الاقذار واخراجه منها
فالملك في هذا هو الخلاق الحكيم ملك العالمين والدار هي
البدن والحشم هي الاعضاء والقوام هي هذه القوى الاربع
ولعلك ترى ذكرنا هذه القوى الاربع وافعالها بعد الذي
وصفت فضلا وترددا وليس ما ذكرته من هذه القوى على
الجهة التي ذكرت في كتب الاطباء ولا قولنا فيه كقولهم
لانهم ذكروها على ما يحتاج اليه في صناعة الطب وتصحيح
الابدان وذكرناها على ما يحتاج في صلاح الدين وشفاء
النفوس من الغي كالذي اوضحته بالوصف الشافي والمثل
المضروب من التدبير والحكمة فيها تامل يا مفضل هذه
القوى التي في النفس وموقعها من الانسان اعني الفكر والوهم
والعقل والحفظ وغير ذلك افرايت لو نقص الانسان من هذه
الخلال الحفظ وحده كيف كانت تكون حاله وكم من خلل
كان يدخل عليه في اموره ومعاشه وتجاربه اذا لم يحفظ
ماله وعليه وما اخذه وما اعطى وما راى وما سمع وما
قال وما قيل له ولم يذكر من احسن اليه ممن اساء به وما
نفعه مما ضره ثم كان لا يهتدي لطريق لو سلكه ما لا يحصى ولا
يحفظ علما ولو درسه عمره ولا يعتقد دينا ولا ينتفع بتجربة

الغي

ولا يستطيع ان يعتبر شيا على ما مضى بل كان حقيقا ان
ينسلخ من الانسانية اصلا فانظر الى النعمة على الانسان فى
هذه الخلال وكيف موقع الواحدة منها دون الجميع واعظم
من النعمة على الانسان فى الحفظ النعمة فى النسيان فانه حسن
لولا النسيان لما سلا احد عن مصيبة ولا انقضت له حسرة
ولا مات له حقد ولا استمتع بشئ من متاع الدنيا مع تذكر
الآفات ولا رجا غفلة من سلطان ولا فترة من حاسد
افلا ترى كيف جعل فى الانسان الحفظ والنسيان وهما مختلفان
متضادان وجعل له فى كل منهما ضرب من المصلحة وما
عسى ان يقول الذين قسموا الاشياء بين خالقين متضادين
فى هذه الاشياء المتضادة المتباينة وقد تراها تجتمع على ما فيه
الصلاح والمنفعة انظر يا مفضل الى ما خص به الانسان دون
جميع الحيوان من هذا الخلق الجليل قدره العظيم غناؤه اعنى
الحياء فلولاه لم يقر ضيف ولم يوف بالعداة ولم تقض الحوائج
ولم يتحر الجميل ولم يتنكب القبيح فى شئ من الاشياء حتى ان كثيرا
من الامور المفترضة ايضا انما يفعل للحياء فان من الناس من
لولا الحياء لم يرع حق والديه ولم يصل ذا رحم ولم يؤد امانة
ولم يعف عن فاحشة افلا ترى كيف وفى الانسان جميع الخلال
التى فيها صلاحه وتمام امره تامل يا مفضل ما انعم الله

تقدست

تقدست اسماؤه به على الانسان من هذا النطق الذى
يعبر به عما فى ضميره وما يخطر بقلبه وينتجه فكره به يفهم
عن غيره ما فى نفسه ولولا ذلك كان بمنزلة البهائم
المهملة التى لا تخبر عن نفسها بشئ ولا تفهم عن مخبر شيا وكذلك
الكتابة التى بها تقيد اخبار الماضين للباقين واخبار
الباقين للآتين وبها تخلد الكتب فى العلوم والآداب
وغيرها وبها يحفظ الانسان ذكر ما يجرى بينه وبين غيره
من المعاملات والحساب ولولاه لانقطع اخبار بعض الازمنة
عن بعض واخبار الغائبين عن اوطانهم ودرست العلوم
وضاعت الآداب وعظم ما يدخل على الناس من الخلل فى
امورهم ومعاملاتهم وما يحتاجون الى النظر فيه من امر
دينهم وما روى لهم مما لا يسعهم جهله ولعلك تظن انها
مما يخلص اليه بالحيلة والفطنة وليست مما اعطيه الانسان
من خلقه وطباعه وكذلك الكلام انما هو شئ يصطلح عليه
الناس فيجرى بينهم ولهذا صار يختلف فى الامم المختلفة بالسن
مختلفة وكذلك الكتابة ككتابة العربى والسريانى والعبرانى
والرومى وغيرها من سائر الكتابة التى هى متفرقة فى الامم
انما اصطلحوا عليها كما اصطلحوا على الكلام فيقال لمن ادعى
ذلك ان الانسان وان كان له فى الامرين جميعا فعل او

حيلة فان الشيء الذي يبلغ به ذلك الفعل والحيلة عطية وهبة
من الله عز وجل له في خلقته فانه لو لم يكن له لسان مهيأ للكلام خلقته
وذهن يهتدي به للامور لم يكن ليتكلم ابدا ولو لم يكن له كف
مهيئة واصابع للكتابة لم يكن ليكتب ابدا واعتبر ذلك من البهايم
التي لا كلام لها ولا كتابة فاصل ذلك فطرة الباري جل وعز
وما تفضل به على خلقه فمن شكر اثيب ومن كفر فان الله غني عن
العالمين فكر يا مفضل فيما اعطي الانسان علمه وما منع فانه
اعطي علم جميع ما فيه صلاح دينه ودنياه فمما فيه صلاح دينه
معرفة الخالق تبارك وتعالى بالدلايل والشواهد القائمة في الخلق
ومعرفة الواجب عليه من العدل على الناس كافة وبر الوالدين
واداء الامانة ومواساة اهل الخلة واشباه ذلك مما قد توجد
معرفته والاقرار والاعتراف به في الطبع والفطرة من كل
امة موافقة او مخالفة وكذلك اعطي علم ما فيه صلاح دنياه
كالزراعة والغراس واستخراج الارضين واقتناء الاغنام والانعام الغرس
واستنباط المياه ومعرفة العقاقير التي يستشفى بها من ضروب
الاسقام والمعادن التي يستخرج منها انواع الجواهر وركوب
السفن والغوص في البحر وضروب الحيل في صيد الوحش والطير
والحيتان والتصرف في الصناعات ووجوه المتاجر والمكاسب
وغير ذلك مما يطول شرحه ويكثر تعداده مما فيه صلاح

امر

امر في هذه الدار فاعطي علم ما يصلح به دينه ودنياه ومنع ما
سوى ذلك مما ليس في شانه ولا طاقته ان يعلم كعلم الغيب وما كعلمه
هو كائن وبعض ما قد كان ايضا كعلم ما فوق السماء وما
تحت الارض وما في لجج البحار واقطار العالم وما في قلوب
الناس وما في الارحام واشباه هذا مما حجب على الناس علمه
وقد ادعت طايفة من الناس هذه الامور فابطل دعواهم
ما بين من خطائهم فيما يقضون عليه ويحكمون به فيما ادعوا
علمه فانظر كيف اعطي الانسان علم جميع ما يحتاج اليه لدينه
ودنياه وحجب عنه ما سوى ذلك ليعرف قدره ونقصه وكلا
الامرين فيهما صلاحه تامل الان يا مفضل ما ستر عن الانسان
علمه من مدة حياته فانه لو عرف مقدار عمره وكان قصير العمر لم
يتهنأ بالعيش مع ترقب الموت وتوقعه لوقت قد عرفه بل كان
يكون بمنزلة من قد فني ماله او قارب الفناء فقد استشعر
الفقر والوجل من فناء ماله وخوف الفقر على ان الذي يدخل
على الانسان من فناء العمر اعظم مما يدخل عليه من فناء
المال لان من يقل ماله يامل ان يتخلف منه فيسكن الى ذلك
ومن ايقن بفناء العمر استحكم عليه اليأس وان كان طويل
العمر ثم عرف ذلك وثق بالبقاء وانهمك في اللذات والمعاصي
وعمل على انه يبلغ من ذلك شهوته ثم يتوب في آخر عمره وهذا

مذهب لا يرضاه الله من عباده ولا يقبله الا ترى لو ان لك عبدا عمل على انه يسخطك سنة ويرضيك يوما او شهرا لم تقبل ذلك منه ولم يحل عندك محل العبد الصالح دون ان يضمر طاعتك ونصحك في كل الامور في كل الاوقات على تصرف الحالات فان قلت اوليس قد يقيم الانسان على المعصية حينا ثم يتوب فيقبل توبته قلنا ان ذلك شيء يكون من الانسان لغلبة الشهوات له وتركه مخالفتها من غير ان يقدرها في نفسه ويبني عليه امره فيصفح الله عنه ويتفضل عليه بالمغفرة فاما من قدر امره على ان يعصي ما بدا له ثم يتوب اخر ذلك فانما يحاول خديعة من لا يخادع بان يتسلف التلذذ في العاجل ويعد ويمني نفسه التوبة في الآجل ولانه لا يفي بما يعد من ذلك فان النزوع من الترفه والتلذذ ومعاناة التوبة ولا سيما عند الكبر وضعف البدن امر صعب ولا يؤمن على الانسان مع مدافعته بالتوبة ان يرهقه الموت فيخرج من الدنيا غير تائب كما قد يكون على الواحد دين الى اجل وقد يقدر على قضائه فلا يزال يدافع بذلك حتى يحل الاجل وقد نفد المال فيبقى الدين قائما عليه فكان خير الاشياء للانسان ان يستر عنه مبلغ عمره فيكون طول عمره يترقب الموت فيترك المعاصي ويؤثر العمل الصالح فان قلت وها هو الان

عبداه

حينا

يتلف

آنا لنسيانه ما علمه من زمان موته وذهوله عنه بسبب الورود الناشي من الانهماك في الشهوات او لعسر الاقدام على التوبة بعد ضعف القوى وضيق المجال فربما كان عليه من حقوق الناس ما يستدعي رده لارباب زمانا كثيرا او كان عليه من حقوق الله تعالى ما لم يكن توبته تتحقق بالنزوع بل كان ما يحتاج الى تداركه من قضاء او كفارة

قد ستر عنه مقدار حياته وصار يترقب الموت في كل ساعة يقارف الفواحش وينتهك المحارم قلنا ان وجه التدبير في هذا الباب هو الذي جرى عليه الامر فيه فان كان الانسان مع ذلك لا يرعوي ولا ينصرف عن المساوي فانما ذلك من مرحه ومن قساوة قلبه لا من خطاء في التدبير كما ان الطبيب قد يصف للمريض ما ينتفع به فان كان المريض مخالفا لقول الطبيب لا يعمل بما يأمره ولا ينتهي عما ينهاه عنه لم ينتفع بصفته ولم يكن الاساءة في ذلك للطبيب بل للمريض حيث لم يقبل منه ولئن كان الانسان مع ترقبه للموت كل ساعة لا يمتنع عن المعاصي فانه لو وثق بطول البقاء كان احرى بان يخرج الى الكباير الفظيعة فترقب الموت على كل حال خير له من الثقة بالبقاء ثم ان ترقب الموت وان كان صنف من الناس يلهون عنه ولا يتعظون به فقد يتعظ به صنف آخر منهم وينزعون عن المعاصي ويؤثرون العمل الصالح ويجودون بالاموال والعقايل النفيسة في الصدقة على الفقراء والمساكين فلم يكن من العدل ان يحرم هؤلاء الانتفاع بهذه الخصلة لتضييع اولئك حظهم منها فكر يا مفضل في الاحلام كيف دبر الامر فيها فمزج صادقها بكاذبها فانها لو كانت كلها تصدق لكان الناس كلهم انبياء ولو كانت كلها تكذب لم يكن فيها منفعة بل كانت فضلا لا معنى له فصارت

ظ
لتضييع

تصدق احيانا فينتفع بها الناس في مصلحة يهتدي لها او مضرة يتحذر
منها وتكذب لئلا يعتمد عليها كل الاعتماد فكر في هذه الاشياء
التي تراها موجودة معدة في العالم من مآربهم فالتراب للبناء
والحديد للصناعات والخشب للسفن وغيرها والحجارة للارحاء
وغيرها والنحاس للاواني والذهب والفضة للمعاملة والجوهر
للذخيرة والحبوب للغذاء والثمار للتفكه واللحم للمأكل والطيب
للتلذذ والادوية للتصحح والدواب للحمولة والحطب للتوقد
والرماد للكلس والرمل للارض وكم عسى ان يحصي المحصي
من هذا وشبهه ارايت لو ان داخلا دخل دارا فنظر الى خزائن
مملوة من كل ما يحتاج اليه الناس ورأى كل ما فيها مجموعا
معدا لاسباب معروفة لكان يتوهم ان مثل هذا يكون
بالاهمال ومن غير عمد فكيف يستجيز قائل ان يقول هذا في العالم
وما اعد فيه من هذه الاشياء اعتبر يا مفضل باشياء
خلقت لمآرب الانسان وما فيها من التدبير فانه خلق له
الحب لطعامه وكلف طحنه وعجنه وخبزه وخلق له الوبر لكسوته
فكلف ندفه وغزله ونسجه وخلق له الشجر فكلف غرسها
وسقيها والقيام عليها وخلقت له العقاقير لادويته فكلف
لقطها وخلطها وصنعها وكذلك تجد سائر الاشياء على
هذا المثال فانظر كيف كفي الخلقة التي لم يكن عنده فيها

حيلة

حيلة وترك عليه في كل شيء من الاشياء موضع عمل وحركة
لما له في ذلك من الصلاح لانه لو كفي هذا كله حتى لا يكون له
في ذلك الاشياء موضع شغل وعمل لما حملته الارض اشرا وبطرا
ولبلغ به كذلك الى ان يتعاطى امورا فيها تلف نفسه ولو كفي
الناس كل ما يحتاجون اليه لما تهنوا بالعيش ولا وجدوا
له لذة الا ترى لو ان امرا نزل بقوم فاقام حينا بلغ جميع ما
يحتاج اليه من مطعم ومشرب وخدمة لتبرم بالفراغ ونازعته
نفسه الى التشاغل بشيء فكيف لو كان طول عمره مكفيا لا
يحتاج الى شيء وكان من صواب التدبير في هذه الاشياء
التي خلقت للانسان ان جعل له فيها موضع شغل لكيلا
تبرمه البطالة ولتكفه عن تعاطي ما لا يناله ولا خير فيه ان
ناله واعلم يا مفضل ان رأس معاش الانسان وحياته
الخبز والماء فانظر كيف دبر الامر فيهما فان حاجة الانسان
الى الماء اشد من حاجته الى الخبز وذلك ان صبره على الجوع
اكثر من صبره على العطش والذي يحتاج اليه من الماء
اكثر مما يحتاج اليه من الخبز لانه يحتاج اليه لشربه ووضوئه
وغسله ثيابه وسقي انعامه وزرعه فجعل الماء مبذولا لا
يشترى لتسقط عن الانسان المؤونة في طلبه وتكلفه وجعل
الخبز متعذرا لا ينال الا بالحيلة والحركة ليكون للانسان

في ذلك شغل يكفه عما يخرجه اليه الفراغ من الاشر والعبث
الا ترى ان الصبي يدفع الى المؤدب وهو طفل لم يكمل ذاته لتعليم
كل ذلك ليشتغل عن اللعب والعبث الذي ربما جنيا عليه وعلى
اهله المكروه العظيم وهكذا الانسان لو خلا من الشغل
لخرج من الاشر والعبث والبطالة ما يعظم ضرره عليه وعلى من
قرب منه واعتبر ذلك بمن نشأ في الجدة ورفاهية العيش والترفه
والكفاية وما يخرجه ذلك اليه اعتبر لم لا يتشابه الناس واحد
بالآخر كما يتشابه الوحوش والطير وغير ذلك فانك
ترى السرب من الظباء والقطا تتشابه حتى لا يفرق بين واحد
منها وبين الاخرى وترى الناس مختلفة صورهم وخلقهم حتى
لا يكاد اثنان منهم يجتمعان في صفة واحدة والعلة في ذلك
ان الناس محتاجون الى ان يتعارفوا باعيانهم وحلاهم
لما يجري بينهم من المعاملات وليس يجري بين البهائم مثل
ذلك فيحتاج الى معرفة كل واحد منها بعينه وحليته الا ترى
ان التشابه في الطير والوحش لا يضرها شيئا وليس كذلك
الانسان فانه ربما تشابه التوامان تشابها شديدا فتعظم
المونة على الناس في معاملتهما حتى يعطى احدهما بالآخر ويؤخذ
احدهما بذنب الآخر وقد يحدث مثل هذا في تشابه الاشيا
فضلا عن تشابه الصورة فمن لطف لعباده بهذه الدقائق

التي لا يكاد يخطر بالبال حتى وقف بها على الصواب الا من
وسعت رحمته كل شيء لو رايت تمثال الانسان مصورا
على حايط فقال لك قايل ان هذا ظهر ههنا من تلقاء
نفسه لم يصنعه صانع اكنت تقبل ذلك بل كنت تستهزئ به
فكيف ينكر هذا في تمثال مصور جماد ولا ينكر في الانسان
الحي الناطق لم صارت ابدان الحيوان وهي تغتذي ابدا
لا تنمي بل تنتهي الى غاية من النمو ثم تقف ولا تتجاوزها لولا
التدبير في ذلك فان من تدبير الحكيم فيها ان يكون ابدان
كل صنف منها على مقدار معلوم غير متفاوت في الكبير والصغير
وصارت تنمي حتى تصل الى غايتها ثم تقف ثم لا تزيد والغذاء
مع ذلك دايم لا ينقطع ولو كانت تنمي نموا دايما لعظمت ابدانها
واشتبهت مقاديرها حتى لا يكون لشيء منها حد يعرف لم
صارت اجسام الانس خاصة تثقل عن الحركة والمشي
وتجفو عن الصناعات اللطيفة الا لتعظيم المونة فيما يحتاج
اليه الناس للملبس والمضجع والتكفين وغير ذلك لو كان
الانسان لا يصيبه الم ولا وجع بم كان يرتدع عن الفواحش
ويتواضع لله ويتعطف على الناس اما ترى الانسان اذا عرض
له وجع خضع واستكان ورغب الى ربه في العافية وبسط
يديه بالصدقة ولو كان لا يالم من الضرب بم كان السلطان

يعاقب الدّعار ويذل العصاة المردة وبم كان الصّبيان يتعلمون
العلوم والصّناعات وبم كان العبيد يذلّون لاربابهم ويذ
لطاعتهم افليس هذا توبيخ لابن ابي العوجاء وذوية الذين جحدوا
التدبير والمانية الذين انكروا الالم والوجع لولم يولد من
الحيوان الا ذكر فقط او اناث فقط الم يكن النسل منقطعا وباد
مع ذلك اجناس الحيوان فصار بعض الاولاد ياتي ذكورا وبعضها
ياتي اناثا ليدوم التناسل ولا ينقطع لما صار الرجل والمرأة
اذا ادركا نبتت لهما العانة ثم نبتت اللحية للرجل وتخلفت
عن المرأة لولا التدبير في ذلك فانه لما جعل الله تبارك وتعالى
الرجل قيما ورقيبا على المرأة وجعل المرأة عرسا وخولا للرجل اعطى
الرجل اللحية لما له من العز والجلالة والهيبة ومنعها المرأة
لتبقى لها نضارة الوجه والبهجة التي تشاكل المفاكهة والمضاجعة
افلا ترى الخلقة كيف ياتي بالصواب في الاشياء وتتخلل مواضع
الخطاء فتعطي وتمنع على قدر الارب والمصلحة بتدبير الحكيم عز وجل
قال المفضل ثم حان وقت الزوال فقام مولاي الى الصلوة
وقال بكّر الي غدا ان شاء الله فانصرفت من عنده مسرورا
بما عرفته مبتهجا بما اوتيته حامدا لله على ما انعم به علي شاكرا
على ما منحني بما عرفنيه مولاي وتفضل به علي فبتّ في ليلتي مسرورا
بما منحنيه مجبورا بما علمنيه تم المجلس الاول يا مفضل يتلوه

المجلس

قال المفضل
عليه الصلاة وصلوات الله عليه وعلى آبائه

المجلس الثاني من كتاب الادلة على الخلق والتدبير والرد على
القائلين بالاهمال ومنكري العمد برواية المفضل فلما كان اليوم
الثاني بكرت الى مولاي فاستؤذن لي فدخلت فامرني با
لجلوس فجلست فقال الحمد لله مدبر الادوار ومعيد الاكوار
طبقا عن طبق وعالما بعد عالم ليجزي الذين اساؤا بما عملوا
ويجزي الذين احسنوا بالحسنى عدلا منه تقدست اسماؤه
وجلت آلاؤه لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس انفسهم
يظلمون يشهد بذلك قوله جل قدسه فمن يعمل مثقال ذرة
خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره في نظاير لها في
كتابه الذي فيه تبيان كل شيء ولا ياتيه الباطل من بين يديه
ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ولذلك قال السيد
محمد صلوات الله عليه وآله انما هي اعمالكم ترد اليكم ثم
اطرق هنيئة ثم قال يا مفضل الخلق حيارى عمهون سكارى
في طغيانهم يترددون وبشياطينهم وطواغيتهم يقتدون
بصراء عمي لا يبصرون نطقاء بكم لا يعقلون سمعاء صم لا يسمعون
رضوا بالدون وحسبوا انهم مهتدون حادوا عن مدرجة
الاكياس ورتعوا في مرعى الارجاس الانجاس كانهم من مفاجات
الموت آمنون وعن المجازات مزحزحون يا ويلهم ما اشقاهم
واطول عناهم واشد بلاهم يوم لا يغني مولى عن مولى شيئا

ولاهم يضرون الآمن رحمه الله قال المفضل فبكيت لما سمعت
منه فقال لا تبك تخلصت اذ قبلت ونجوت اذ عرفت ثم
قال ابتدي لك بذكر الحيوان ليتضح لك من امره ما وضح لك
من غيره فكر في ابنية ابدان الحيوان وتهيئتها على ما هي عليه فلا هي
صلاب كالحجارة ولو كانت كذلك لا تنثني ولا تتصرف في الاعمال تتثنى ر
ولا هي على غاية اللين والرخاوة فكانت لا تتحامل ولا تستقل بانفسها
فجعلت من لحم رخو ينثني تداخله عظام صلاب يمسكه عصب
وعروق تشده ويضم بعضه الى بعض وعليت فوق ذلك بجلد يشتمل
على البدن كله ومن اشباه ذلك هذه التماثيل التي تعمل من العيدان
وتلف بالخرق وتشد بالخيوط وتطلى فوق ذلك بالصمغ فيكون العيدان
بمنزلة العظام والخرق بمنزلة اللحم والخيوط بمنزلة العصب
والعروق والطلاء بمنزلة الجلد فان جاز ان يكون الحيوان المتحرك
حدث بالاهمال من غير صانع جاز ان يكون ذلك في هذه التماثيل
الميتة فان كان هذا غير جايز في التماثيل فبالحري ان لا يجوز في
الحيوان وفكر بعد هذا في اجساد الانعام فانها حين خلقت
على ابدان الانس من اللحم والعظم والعصب اعطيت ايضا السمع
والبصر ليبلغ الانسان حاجته فانها لو كانت عميا صما لما
انتفع بها الانسان ولا تصرفت في شيء من مآربه ثم منعت
الذهن والعقل لتذل للانسان فلا تمتنع عليه اذا كدها الكد

الشديد

الشديد وحملها الحمل الثقيل فان قال قايل انه قد يكون
للانسان عبيد من الانس يذلون ويذعنون بالكد الشديد
وهم مع ذلك غير عديمي العقل والذهن فيقال في جواب
ذلك ان هذا الصنف من الناس قليل فاما اكثر الناس
فلا يذعنون بما تذعن به الدواب من الحمل والطحن وما شابه
ذلك ولا يعزون بما يحتاج اليه منه ثم لو كان الناس يزاولون
مثل هذه الاعمال بابدانهم لشغلوا بذلك عن ساير الاعمال
لانه كان يحتاج مكان الجمل الواحد والبغل الواحد الى
عدة اناسي فكان هذا العمل يستفرغ الناس حتى لا يكون
فيهم عنه فضل لشيء من الصناعات مع ما يلحقهم من التعب
الفادح في ابدانهم والضيق والكد في معاشهم فكر يا مفضل في
هذه الاصناف الثلثة من الحيوان وفي خلقها على ما هي
عليه بما فيه صلاح كل واحد منها فالانس لما قدروا ان
يكونوا ذوي ذهن وفطنة وعلاج لمثل هذه الصناعات من
البناء والتجارة والصياغة وغير ذلك خلقت لهم اكف كبار
ذوات اصابع غلاظ ليتمكنوا من القبض على الاشياء واوكدها ها
هذه الصناعات واكلات اللحم لما قدر ان يكون معايشها
من الصيد ولا تصلح للصناعات واكلات النبات لما قدر
ان يكونوا لا ذات صنعة ولا ذات صيد خلقت لبعضها

خلقت لهم اكف لطاف مدمجة
ذوات براثن ومخاليب تصلح لاخذ
الصيد

اظلاف يقيها خشونة الارض اذا حاول طلب الرعي ولبعضها
حوافر ململمة ذوات قعر كاخمص القدم تنطبق على الارض ليتهيا للركوب
وللحمولة تأمل التدبير في خلق آكلات اللحم من الحيوان حين خلقت جلت
ذوات اسنان حداد وبراثن شداد واشداق وافواه واسعة
فانه لما قدر ان يكون طعمها اللحم خلقت خلقة تشاكل ذلك واعينت
بسلاح وادوات تصلح للصيد وكذلك تجد سباع الطير ذوات
مناقير ومخاليب مهياة لفعلها ولو كانت الوحوش ذوات
مخالب كانت قد اعطيت ما لا يحتاج اليه لانها لا تصيد ولا
تأكل اللحم ولو كانت السباع ذوات اظلاف كانت قد منعت ما
تحتاج اليه اعني السلاح الذي به تصيد وتتعيش افلا ترى كيف
اعطى كل واحد من الصنفين ما يشاكل صنفه وطبقته بل ما
فيه بقاؤه وصلاحه انظر الان الى ذوات الاربع كيف تراها
تتبع امهاتها مستقلة بانفسها لا تحتاج الى الحمل والتربية كما
يحتاج اولاد الانس فمن اجل انه ليس عند امهاتها ما عند
امهات البشر من الرفق والعلم بالتربية والقوة عليها بالاكف
والاصابع المهياة لذلك اعطيت النهوض والاستقلال بانفسها
وكذلك ترى كثيرا من الطير كمثل الدجاج والدراج والقبج
تدرج وتلقط حين ينقاب عنها البيض فاما ما كان منها
ضعيفا لا نهوض فيه كمثل فراخ الحمام واليمام والحمر فقد جعل

في الامهات فضل عطف عليها فصارت تمج الطعام في افواهها
بعد ما توعيه حواصلها فلا تزال تغذوها حتى تستقل بانفسها
ولذلك لم ترزق الحمام فراخا كثيرة مثل ما ترزق الدجاج
لتقوى الام على تربية فراخها فلا تفسد ولا تموت فكل اعطي
بقسط من تدبير الحكيم اللطيف الخبير انظر الى قوائم الحيوان كيف
تأتي ازواجا لتتهيا للمشي ولو كانت افرادا لم يصلح لذلك لان
الماشي ينقل قوائمه ويعتمد على بعض فذو القائمتين ينقل واحدة
ويعتمد على واحدة وذو الاربع ينقل اثنين ويعتمد على اثنين
وذلك من خلاف لان ذا الاربع لو كان ينقل قائمتين من
احد جانبيه ويعتمد على قائمتين من الجانب الاخر لما ثبت
على الارض كما لا يثبت السرير وما اشبهه فصار ينقل اليمنى
من مقاديمه مع اليسرى من مآخيره وينقل الاخريين ايضا
من خلاف فيثبت على الارض ولا يسقط اذا مشى اما ترى
الحمار كيف يذل للطحن وللحمولة وهو يرى الفرس مودعا منعما والبعير
لا يطيقه عدة رجال لو استعصى كيف كان ينقاد للصبي والثور
الشديد كيف كان يذعن لصاحبه حتى يضع النير على عنقه
ويحرث به والفرس الكريم يركب السيوف والاسنة
بالمواتاة لفارسه والقطيع من الغنم يرعاه رجل واحد ولو
تفرقت الغنم فاخذ كل واحد منها في ناحية لم يلحقها وكذلك

جميع الاصناف المسخرة للانسان فلم كانت كذلك الا انها عدمت
العقل والروية فانها لو كانت تعقل وتروي في الامور كانت خليقة
ان تلتوي على الانسان في كثير من مآربه حتى يمتنع الجمل على قايده
والثور على صاحبه وتتفرق الغنم عن راعيها واشباه هذا من الامور
وكذلك هذه السباع لو كانت ذات عقل وروية فتوازرت على
الناس كانت خليقة ان تجتاحهم فمن كان يقوم للاسد والذئاب
والنمورة والدببة لو تعاونت وتظاهرت على الناس افلا ترى
كيف حجر ذلك عليها وصارت مكان ما كان يخاف من اقدامها
ونكايتها تهاب مساكن وتحجم عنها ثم لا تظهر ولا تنتشر لطلب
قوتها الا بالليل فهو مع صولتها كالخايف للانس بل مقموعة ممنوعة
منهم ولولا ذلك لساورتهم في مساكنهم وضيقت عليهم ثم جعل في
الكلب من بين هذه السباع عطف على مالكه ومحاماة عنه وحفاظ
له فهو ينتقل على الحيطان والسطوح في هذا ظلمة الليل لحراسة — في ظلمة هذا
منزل صاحبه وذب الدعار عنه ويبلغ من محبته لصاحبه ان يبذل
نفسه للموت دونه ودون ماشيته وماله ويألفه غاية
الالف حتى يصبر معه على الجوع والجفوة فلم طبع الكلب على
هذا الالف الا ليكون حارسا للانسان له عين بانياب و
مخالب ونباح هايل ليذعر منه السارق وتتجنب المواضع التي
يحميها ويحفظها يا مفضل تامل وجه الدابة كيف هو فانك ترى

العينين

العينين شاخصتين امامها لتبصر ما بين يديها لئلا تصدم
حايطا او تتردى في حفرة وترى الفم مشقوقا في اسفل الخطم — شقاء
ولو شق كمكان الفم من الانسان في مقدم الذقن لما استطاع — ع
ان يتناول به شيئا من الارض الا ترى ان الانسان لا يتناول
الطعام بفيه ولكن بيده تكرمة له على ساير الآكلات فلما
لم يكن للدابة يد تتناول بها العلف جعل خطمها مشقوقا من
اسفله لتقبض به على العلف ثم تقضمه واعينت بالجحفلة تتناول
بها ما قرب وما بعد اعتبر بذنبها والمنفعة لها فيه فانه
بمنزلة الطبق على الدبر والحياء جميعا يواريهما ويسترهما ومن
منافعها فيه ان ما بين الدبر ومراقي البطن منها وضر يجتمع عليه
الذباب والبعوض فجعل لها الذنب كالمذبة تذب بها عن ذلك
الموضع ومنها ان الدابة تستريح الى تحريكه وتصريفه يمنة
ويسرة فانه لما كان قيامها على الاربع باسرها وشغلت المقدمتان
بحمل البدن عن التصرف والتقلب كان لها في تحريك الذنب
راحة وفيه منافع اخرى يقصر عنها الوهم يعرف موقعها
في وقت الحاجة اليها فمن ذلك ان الدابة ترتطم في الوحل
فلا يكون شيء اعون على نهوضها من الاخذ بذنبها وفي شعر
الذنب منافع للناس كثيرة يستعملونها في مآربهم ثم جعل ظهرها
مسطحا مبطوحا على قوايم اربع ليتمكن من ركوبها وجعل

حياها بارزا من ورائها ليتمكن الفحل من ضربها ولو كان اسفل
البطن كمكان الفرج من المراة لم يتمكن الفحل منها الا ترى انه لا
يستطيع ان يأتيها كما ياتي الرجل المراة تأمل مشفر الفيل
وما فيه من لطيف التدبير فانه يقوم مقام اليد في تناول
العلف والماء وازدرادها الى جوفه ولولا ذلك لما استطاع
ان يتناول شيئا من الارض لانه ليست له رقبة يمدها كساير
الانعام فلما عدم العنق اعين مكان ذلك بالخرطوم الطويل
ليسدله فينا وله به حاجته فمن ذا الذي عوضه مكان العضو
الذي عدمه ما يقوم مقامه الا الرؤف بخلقه وكيف يكون
هذا بالاهمال كما قالت الظلمة فان قال قايل فما له لم يخلق ذا
عنق كساير الانعام قيل له ان راس الفيل واذنيه امر عظيم
وثقل ثقيل ولو كان ذلك على عنق عظيمة لهدها واوهنها
فجعل راسه ملصقا بجسمه لكيلا ينال منه ما وصفنا وخلق له
مكان العنق هذا المشفر ليتناول به غذاءه فصار مع عدمه العنق
مستوفيا ما فيه بلوغ حاجته انظر الآن كيف حياء الانثى من
الفيلة في اسفل بطنها فاذا هاجت للضراب ارتفع وبرز حتى يمكن
الفحل من ضربها فاعتبر كيف جعل حياء الانثى من الفيلة على
خلاف ما عليه في غيرها من الانعام ثم جعلت فيه هذه الخلة
ليتهيأ للامر الذي فيه قوام النسل ودوامه فكر في خلق الزرافة

واخلاف

واختلاف اعضائها وشبهها باعضاء اصناف من الحيوان
فراسها رأس فرس وعنقها عنق جمل واظلافها اظلاف بقرة
وجلدها جلد نمر وزعم ناس من الجهال بالله عز وجل ان نتاجها
من فحول شتى قالوا وسبب ذلك ان اصنافا من حيوان
البر اذا وردت الماء تنزو على بعض السايمة وينتج مثل هذا الشخص
الذي هو كالملتقط من اصناف شتى وهذا جهل من قايله وقلة
معرفته بالباري جل قدسه وليس كل صنف من الحيوان يلقح
كل صنف فلا الفرس يلقح البقر وانما يكون التلقيح من بعض الحيوان
فيما يشاكله ويقرب من خلقه كما يلقح الفرس الحمارة فيخرج بينهما
البغل ويلقح الذيب الضبع فيخرج بينهما السمع على انه ليس يكون
في الذي يخرج من بينهما عضو من كل واحد منهما كما في الزرافة
عضو من الفرس وعضو من الجمل واظلاف من البقرة بل يكون
كالمتوسط بينهما الممتزج منهما كالذي تراه في البغل فانك ترى
رأسه واذنيه وكفله وذنبه وحوافره وسطا بين هذه
الاعضاء من الفرس والحمار وشحيجه كالممتزج من صهيل الفرس
ونهيق الحمار فهذا دليل على انه ليست الزرافة من نتاج
اصناف شتى من الحيوان كما زعم الجاهلون بل هي خلق عجيب
من خلق الله للدلالة على قدرته التي لا يعجزها شيء وليعلم انه
خالق اصناف الحيوان كلها يجمع بين ما يشاء من اعضائها

شحيجه ظ

يلقح الجمل ولا الجمل

فى ايهما شاء، ويفرق ما شاء منها فى ايهما شاء، ويزيد فى الخلقة ما
شاء وينقص منها ما شاء، دلالة على قدرته على الاشياء، وانه
لا يعجزه شئ اراده جل وتعالى فاما طول عنقها والمنفعة لها فى
ذلك فان منشأها ومرعاها فى غياطل ذوات اشجار شاهقة
ذاهبة طولا فى الهواء فهى تحتاج الى طول العنق لتناول بفيها
اطراف تلك الاشجار فتتقوت من ثمارها تأمل خلق القرد و
شبهه بالانسان فى كثير من اعضائه اعنى الرأس والوجه
والمنكبين والصدر وكذلك احشاءه شبيهة ايضا باحشاء
الانسان وخص مع ذلك بالذهن والفطنة التى بها يفهم
عن سائسه ما يومى اليه ويحكى كثيرا مما يرى الانسان
يفعله حتى انه يقرب من خلق الانسان وشمائله والتدبير
فى خلقته على ما هى عليه ان يكون عبرة للانسان فى نفسه
فيعلم انه من طينة البهايم وسنخها اذ كان يقرب من خلقها
هذا القرب وانه لولا فضيلة فضله بها فى الذهن والعقل
والنطق كان كبعض البهايم على ان فى جسم القرد فضولا اخرى
يفرق بينه وبين الانسان كالخطم والذنب المسدل والشعر
المجلل للجسم كله وهذا لم يكن مانعا للقرد ان يلحق بالانسان
لو اعطى مثل ذهن الانسان وعقله ونطقه والفصل الفاصل
بينه وبين الانسان بالصحة النقص فى العقل والذهن والنطق

انظر يا مفضل الى لطف الله جل اسمه بالبهايم كيف كسيت
اجسامهم هذه الكسوة من الشعر والوبر والصوف ليقيها من
البرد وكثرة الآفات والبست الاظلاف والحوافر والاخفاف
ليقيها من الحفاء اذ كانت لا ايدى لها ولا اكف ولا اصابع
مهياة للغزل والنسج فكفوا بان جعل كسوتهم فى خلقتهم
باقية عليهم ما بقوا لا يحتاجون الى تجديدها والاستبدال
بها فاما الانسان فانه ذو حيلة وكف مهيأة للعمل فهو ينسج
ويغزل ويتخذ لنفسه الكسوة ويستبدل بها حالا بعد حال
وله فى ذلك صلاح من جهات من ذلك انه يشتغل بصنعة
اللباس عن العبث وما يخرجه اليه الكفاية ومنها انه
يستريح الى خلع كسوته ولبسها اذا شاء ومنها ان يتخذ لنفسه
من الكسوة ضروبا لها جمال وروعة فيتلذذ بلبسها وتبديلها
وكذلك يتخذ بالرفق من الصنعة ضروبا من الخفاف والنعال
يقى بها قدميه وفى ذلك معايش لمن يعمله من الناس
ومكاسب يكون فيها معاشهم ومنها اقواتهم واقوات عيالهم
فصار الشعر والوبر والصوف يقوم للبهايم مقام الكسوة و
الاظلاف والحوافر والاخفاف مقام الحذاء فكر يا مفضل
فى خلقة عجيبة فى البهايم فانهم يوارون انفسهم اذا ماتوا جبلت
كما يوارى الناس موتاهم والا فاين جيف هذه الوحوش

والسباع وغيرها لايرى منها شئ وليست قليلة فتخفى لقلتها
بل لو قال قائل انها اكثر من الناس لصدق فاعتبر ذلك بما
نراه فى الصحارى والجبال من اسراب الظبا والمها والحمير و
الوعول والايايل وغير ذلك من الوحوش واصناف السباع
من الاسد والضباع والذياب والنمور وغيرها وضروب
الهوام والحشرات ودواب الارض وكذلك اسراب الطير
من الغربان والقطا والاوز والكراكى والحمام وسباع
الطير جميعا وكلها لايرى منها اذا ماتت الا الواحد بعد
الواحد يصيده قابس او يفترسه سبع فاذا احسوا با
لموت كمنوا فى مواضع خفية فيموتون فيها ولولا ذلك لا
متلأت الصحارى منها حتى تفسد رائحة الهواء ويحدث الا مراض
والوباء فانظر الى هذا الذى يخلص اليه الناس وعملوا با
لتمثيل الاول الذى مثل لهم كيف جعل طبعا وادكارا فى
البهايم وغيرها ليسلم الناس من معرة ما يحدث عليهم من
الامراض والفساد فكر يا مفضل فى الفطن التى جعلت
فى البهايم لمصلحتها بالطبع والخلقة لطفا من الله عز وجل لهم
لئلا يخلوا من نعمه جل وعز احد من خلقه لا بعقل وروية لا بعقل وروية ظ
فان الايل ياكل الحيات فيعطش عطشا شديدا فيمتنع من
شرب الماء خوفا من ان يدب السم فى جسمه فيقتله و

يقف

يقف على الغدير وهو مجهود عطشا فيعج عجيجا عاليا ولا يشرب
منه ولو شرب لمات من ساعته فانظر الى ما جعل من
طباع هذه البهيمة من الوعل الظماء الغالب خوفا من المضرة
فى الشرب وذلك مما لا يكاد الانسان العاقل المميز يضبطه
من نفسه والثعلب اذا اعوزه الطعم تماوت ونفخ بطنه حتى
يحسبه الطير ميتا فاذا وقعت عليه لتنهشه وثب عليها فاخذها
فمن اعان الثعلب العديم النطق والروية بهذه الحيلة الا من
توكل بتوجيه الرزق له من هذا وشبهه فانه لما كان الثعلب
يضعف عن كثير مما يقوى عليه السباع من مساورة الصيد اعين
بالدهاء والفطنة والاحتيال لمعاشه والدلفين يلتمس صيد
الطير فيكون حيلته فى ذلك ان ياخذ السمك فيقتله ويشرحه
حتى يطفو على الماء ثم يكمن تحته ويثور الماء الذى عليه حتى
لا يتبين شخصه فاذا وقع الطير على السمك الطافى وثب اليها
فاصطادها فانظر الى هذه الحيلة كيف جعلت طبعا فى هذه
البهيمة لبعض المصلحة قال المفضل فقلت خبرنى يا مولاى
عن التنين والسحاب فقال عليه السلام ان السحاب كا
لموكل به يختطفه حيثما ثقفه كما يختطف حجر المغناطيس
الحديد فهو لا يطلع راسه فى الارض خوفا من السحاب ولا
يخرج الا فى القيظ مرة اذا صحت السماء فلم يكن فيها نكتة من

عنه قلت فلم وكل السحاب بالتنين يرصده ويختطفه اذا
وجده قال ليدفع عن الناس مضرته قال المفضل فقلت قد
وصفت لي يا مولاي من امر البهايم ما فيه معتبر لمن اعتبر فصف
لي الذرة والنمل والطير فقال عليه السلام يا مُفضل تأمل
وجه الذرة الحقيرة الصغيرة هل تجد فيها نقصا عما فيه صلاحها
فمن اين هذا التقدير والصواب في خلق الذرة الا من التدبير
القائم في صغير الخلق وكبيره انظر الى النمل واحتشاده في جمع
القوت واعداده فانك ترى الجماعة منها اذا نقلت الحب الى
زبيتها بمنزلة جماعة من الناس ينقلون الطعام او غيره بل
للنمل في ذلك من الجد والتشمير ما ليس للناس مثله اما تراهم
يتعاونون على النقل كما يتعاون الناس على العمل ثم يعمدون نقلة
الى الحب فيقطعونه قطعا لكيلا ينبت فيفسد عليهم فان
اصابه ندى اخرجوه فنشروه حتى يجف ثم لا يتخذ النمل
الزبية الا في نشز من الارض كي لا يفيض السيل فيغرقها فكل
هذا منه بلا عقل ولا روية بل خلقة خلق عليها لمصلحة لطفا
من الله عز وجل انظر الى هذا الذي يقال له الليث وتسميه
العامة اسد الذباب وما اعطي من الحيلة والرفق في معاشه
فانك تراه لا تحرك به فاذا راى الذباب قد اطمان وغفل حين يحس بالذباب قد
عنه دب دبيبا دقيقا حتى يكون منه بحيث يناله وثبه وقع قريبا منه تركه مليا
حتى كانه موات
رفيقا

ثم يثب عليه فيأخذه فاذا اخذه اشتمل عليه بجسمه كله
مخافة ان ينجو منه فلا يزال قابضا عليه بجسمه حتى يحس
بانه قد ضعف واسترخى ثم يقبل عليه فيفترسه ويحيى منه
فاما العنكبوت فانه ينسج ذلك النسج فيتخذه شركا ومصيدة
للذباب ثم يكمن في جوفه فاذا نشب فيه الذباب احال
عليه يلدغه ساعة بعد ساعة فيعيش بذلك منه فكذلك
يحكى صيد الكلاب والفهود وهكذا يحكي صيد الاشراك و
الحبايل فانظر الى هذه الدويبة الضعيفة كيف جعل في طبعها
ما لا يبلغه الانسان الا بالحيلة واستعمال الآلات فيها فلا
تزدر بالشيء اذا كانت العبرة فيه واضحة كالذرة والنملة وما
اشبه ذلك فان المعنى النفيس قد يمثل بالشيء الحقير فلا يضع يضع ط فيها
منه ذلك كما لا يضع من الدينار وهو من ذهب ان يوزن
بمثقال من حديد تأمل يا مُفضل جسم الطاير وخلقته فانه
حين قدر ان يكون طايرا في الجو خفف جسمه وادمج خلقه
فاقتصر به من القوايم الاربع على اثنتين ومن الاصابع الخمس
على اربع ومن منفذين للزبل والبول على واحد يجمعهما ثم خلق
ذا جوجوء محدد ليسهل عليه ان يخرق الهواء كيف ما اخذ فيه
كما جعل السفينة بهذه الهيئة لتشق الماء وتنفذ فيه وجعل
في جناحيه وذنبه ريشات طوال متان لينهض بها للطيران

وكسي كله الريش ليداخله الهواء فيقله ولما قدر ان يكون
طعمه الحب واللحم يبلعه بلعا بلا مضغ نقص من خلقه الاسنان
وخلق له منقار صلب جاس تينا ولبه طعمه فلا ينسحج من لقط الحب
ولا ينقصف من نهش اللحم ولما عدم الاسنان وصار يزدرد الحب
صحيحا واللحم عرِيضا اعين بفضل حرارة في الجوف تطحن له الطعم طحنا
يستغنى به عن المضغ واعتبر ذلك بان عجم العنب وغيره يخرج من
اجواف الانس صحيحا ويطحن في اجواف الطير لا يرى له اثر ثم جعل يطحن ر
مما يبيض بيضا ولا يلد ولادة لكيلا يثقل عن الطيران فانه لو كانت
الفراخ في جوفه يمكث حتى تستحكم لاثقلته وعاقته عن النهوض
والطيران فجعل كل شي من خلقه مشاكلا للامر الذي قدر
ان يكون عليه ثم طار الطاير السايح في هذا الجو يقعد على بيضه صار ظ
فيحضنه اسبوعا وبعضها اسبوعين وبعضها ثلثة اسابيع
حتى يخرج الفرخ من البيضة ثم يقبل عليه فيزقه الريح ليتسع
حوصلته للغذاء ثم يربيه ويغذيه بما يعيش به فمن كلفه
ان يلقط الطعم ويستخرجه بعد ان يستقر في حوصلته ويغذو
به فراخه ولاي معنى يحتمل هذه المشقة وليس بذي روية
ولا تفكر ولا يأمل في فراخه ما يأمل الانسان في ولده من
العز والرفد وبقاء الذكر فهذا هو من فعل يشهد بانه معطوف
على فراخه لعلة لا يعرفها ولا يفكر فيها وهي دوام النسل

وبقاؤه

وبقاؤه لطفا من الله تعالى ذكره انظر الى الدجاجة
كيف تهيج لحضن البيض والتفريخ وليس لها بيض مجتمع ولا
وكر موطى بل تنبعث وتنتفخ وتقوقي وتمتنع من الطعم حتى
يجمع لها البيض فتحضنه وتفرخ فلم كان ذلك منها الا لاقامة
النسل ومن اخذها باقامة النسل ولا روية ولا تفكر لولا انها
مجبولة على ذلك اعتبر بخلق البيضة وما فيها من المح الاصفر
الخاثر والماء الابيض الرقيق فبعضه لينتشر منه الفرخ وبعضه
ليغتذي به الى ان تنقاب عنه البيضة وما في ذلك من التدبير
فانه لو كان نشو الفرخ في تلك القشرة المستحصنة التي لما كان ظ
لا مساغ لشي اليها لجعل معه في جوفها من الغذاء ما
يكتفي به الى وقت خروجه منها كمن يحبس في حبس حصين
لا يوصل الى من فيه فيجعل معه من القوت ما يكتفي به
الى وقت خروجه منه فكر في حوصلة الطاير وما
قدر له فان مسلك الطعم الى القانصة ضيق لا ينفذ فيه
الطعام الا قليلا قليلا فلو كان الطاير لا يلقط حبة
ثانية حتى تصل الاولى الى القانصة لطال عليه ومتى كان
يستوفي طعمه فانما يختلسه اختلاسا لشدة الحذر فجعلت
الحوصلة كالمخلاة المعلقة امامه ليوعي فيها ما ادرك
من الطعم بسرعة ثم تنفذه الى القانصة على مهل وفي الحوصلة

ايضا خلة اخرى فان من الطاير ما يحتاج الى ان يزق
فراخه فيكون رده للطعم من قرب ما سهل عليه قال المفضل
فقلت ان قوما من المعطلة يزعمون ان اختلاف
الالوان والاشكال في الطير انما يكون من قبل امتزاج
الاخلاط واختلاف مقاديرها بالمرج والاهمال فقال يا
مفضل هذا الوشي الذي تراه في الطواويس والدراج و
التدارج على استواء ومقابلة كنحو ما يخط بالاقلام كيف
يأتي به الامتزاج المهمل على شكل واحد لا يختلف لو كان
بالاهمال لعدم الاستواء ولو كان لكان مختلفا تامل ريش الطير
كيف هو فانك تراه منسوجا كنسج الثوب من سلوك دقاق
قد الف بعضه الى بعض كتأليف الخيط الى الخيط والشعرة
الى الشعرة ثم ترى ذلك النسج اذا مددته ينفتح قليلا ولا ينشق
لتداخله الريح فيقل الطاير اذا طار وترى في وسط الريشة
عمودا غليظا متينا قد نسج عليه الذي هو مثل الشعر ليمسكه
بصلابته وهو القصبة التي في وسط الريشة وهو مع ذلك
اجوف ليخف على الطاير ولا يعوقه عن الطيران هل رايت
يا مفضل هذا الطاير الطويل الساقين وعرفت ما له
من المنفعة في طول ساقيه فانه اكثر ذلك في ضحضاح
من الماء فتراه بساقين طويلين كانه ربيئة فوق مرقب وهو

يتأمل ما يدب في الماء فاذا راى شيئا مما يتقوت به خطا
خطوات رفيقا حتى يتناوله ولو كان قصير الساقين كان يخطو
نحو الصيد ليأخذه فيصيب بطنه الماء فيثور ويذعر منه فيتفرق
عنه فخلق له ذانك العمودان ليدرك بهما حاجته ولا يفسد
عليه مطلبه تامل ضروب التدبير في خلق الطاير فانك تجد
كل طاير طويل الساقين طويل العنق وذلك ليتمكن
من تناول طعمه من الارض ولو كان طويل الساقين
قصير العنق لما استطاع ان يتناول شيئا من الارض
وربما اعين على طول العنق بطول المناقير ليزداد الامر عليه
سهولة له وامكانا افلا ترى انك لا تفتش الخلقة الا وجدته شيئا منه
على غاية الصواب والحكمة انظر الى العصافير كيف يطلب
اكلها بالنهار فهي لا تفقده ولا هي تجده مجموعا معدا بل تناله
بالحركة والطلب وكذلك الخلق كله فسبحان من قدر الرزق
كيف قوته فلم يجعل مما لا يقدر عليه اذ جعل بالخلق حاجة
اليه ولم يجعله مبذولا ينال بالهوينا اذ كان لا صلاح
في ذلك فانه لو كان يوجد مجموعا معدا كانت البهايم
تنقلب عليه ولا تنقلع عنه حتى تبشم فتهلك وكان الناس
ايضا يصيرون بالفراغ الى غاية الاشر والبطر حتى يكثر الفساد
ويظهر الفواحش اعلمت ما طعم هذه الاصناف من الطير التي

لا يخرج الا بالليل كمثل البوم والهام والخفاش قلت لا يا مولاي
قال ان معاشها من ضروب تنتشر في هذا الجو من البعوض
والفراش واشباه الجراد واليعاسيب وذلك لان هذه
الضروب مبثوثة في الجو لا يخلوا منها موضع واعتبر ذلك بانك
اذا وضعت سراجا بالليل في سطح او عرصة دار اجتمع عليه
من هذا شي كثير فمن اين ياتي ذلك كله الا من القرب
فان قال قايل انه ياتي من الصحاري والبراري قيل له كيف
يوافي تلك الساعة من موضع بعيد وكيف يبصر من ذلك
البعد سراجا في دار محفوفة بالدور فيقصد اليه مع ان هذه
عيانا تتهافت على السراج من قرب فيدل ذلك على انها منتشرة
في كل موضع من الجو فهذه الاصناف من الطير تلتمسها اذا خرجت
فيتقوت بها فانظر كيف وجه الرزق لهذه الطيور التي لا
تخرج الا بالليل من هذه الضروب التي عسى ان يظن ظان
انها فضل لا معنى له خلق الخفاش خلقة عجيبة بين خلقة
الطير وذوات الاربع بل هو الى ذوات الاربع اقرب وذلك
انه ذو اذنين ناشزتين واسنان ووبر وهو يلد ولادا و
يرضع ويبول ويمشي اذا مشى على اربع وكل هذا خلاف صفة
الطير ثم هو ايضا مما يخرج بالليل ويتقوت مما يسري في الجو
من الفراش وما اشبهه وقد قال قائلون انه لا طعم للخفاش

وان

المنتشرة في الجو او يعرض مع ذلك الذي في خلقه من الضروب

وان غذاءه من النسيم وحده وذلك يفسد ويبطل من جهتين
احديهما خروج ما يخرج منه من الثفل والبول فان هذا
لا يكون من غير طعم والاخرى انه ذو اسنان ولو كان لا يطعم
شيا لم يكن للاسنان فيه معنى وليس في الخلقة شي لا معنى له
واما المآرب فيه فمعروفة حتى ان زبله يدخل في بعض الاعمال
ومن اعظم الارب فيه خلقته العجيبة الدالة على قدرة الخالق
جل ثناءه وتصرفها فيما شاء كيف شاء لضرب من المصلحة
فاما الطاير الصغير الذي يقال له ابو تمرة فقد عشش
في بعض الاوقات في بعض الشجر فنظر الى حية عظيمة قد
اقبلت نحو عشه فاغرة فاها لتبلعه فبينما هو يتقلب
ويضطرب في طلب حيلة منها اذا وجد حسكة فحملها
فالقاها في فم الحية فلم تزل الحية تلتوي وتتقلب حتى
ماتت افرايت لو لم اخبرك بذلك كان يخطر ببالك او ببال
غيرك انه يكون من حسكة مثل هذه المنفعة العظيمة
او يكون من طاير صغير او كبير مثل هذه الحيلة اعتبر بهذا
وكثير من الاشياء يكون فيها منافع لا تعرف الا بحادث
يحدث به والخبر يسمع به انظر الى النحل واحتشاده في صنعة
العسل وتهيئة البيوت المسدسة وما ترى في ذلك من
دقايق الفطنة فانك اذا تاملت العمل رايته عجيبا لطيفا

حسكة ظ

واذا رايت المعمول وجدته عظيما شريفا موقفه من الناس و
اذا رجعت الى الفاعل القيته غبيا جاهلا بنفسه فضلا عما
سوى ذلك ففى هذا اوضح الدلالة على ان الصّواب والحكمة
فى هذه الصنعة ليس للنحل بل هى للذى طبعه عليها وسخره
فيها لمصلحة الناس انظر الى هذا الجراد ما اضعفه واقواه
فانك اذا تاملت خلقه رايته كاضعف الاشياء وان دلفت
عساكره نحو بلد من البلدان لم يستطع احدٌ أن يحميه منه
الا ترى ان ملكا من ملوك الارض لو جمع خيله ورجله ليحمى
بلاده من الجراد لم يقدر على ذلك افليس من الدلايل على
قدرة الخالق ان يبعث اضعف خلقه الى اقوى خلقه فلا
يستطيع دفعه انظر اليه كيف ينساب على وجه الارض مثل
السّيل فيغشى السّهل والجبل والبدو والحضر حتى يستر نور
الشمس بكثرته فلو كان هذا مما يصنع بالايدى متى كان يجتمع
منه هذه الكثرة وفى كم من سنة كان يرتفع فاستدل
بذلك على القدرة التى لا يؤدها شئ ولا يكثر عليها تأمل
خلق السمك ومشاكلته للامر الذى قدر ان يكون عليه
فانه خلق غير ذى قوايم لانه لا يحتاج الى المشى اذ كان
مسكنه الماء وخلق غير ذى رية لانه لا يستطيع ان يتنفس
وهو منغمس فى اللجة وجعلت له مكان القوايم اجنحة شداد

يردّها

يضرب

يضرب بها فى جانبيه كما يضرب الملاح بالمجاديف من جانبى
السفينه وكسى جسمه قشورا متانا متداخلة كتداخل الدروع ع
والجواشن لتقيه من الافات فاُعين بفضل حسّ فى الشم حسّ
لان بصره ضعيف والماء يحجبه فصار يشم الطُّعم من البعد
البعيد فينتجعه والا فكيف يعلم به وبموضعه واعلم ان من فيه
الى صماخيه منافذ فهو يعب الماء بفيه ويرسله من صماخيه
منافذ فيتروح الى ذلك كما يتروح غيره من الحيوان الى تنسم
هذا النسيم فكر الآن فى كثرة نسله وما خص به من ذلك
فانك ترى فى جوف السمكة الواحدة من البيض ما لا
يحصى كثرة والعلة فى ذلك ان يتسع لما يغتذى به من اصناف
الحيوان فان اكثرها ياكل السمك حتى ان السباع ايضا
فى حافات الاجام عاكفة على الماء ايضا كى ترصد السمك
فاذا مر بها خطفته فلما كانت السباع تاكل السمك والطير
ياكل السمك والناس ياكلون السمك والسمك ياكل السمك
كان من التدبير فيه ان يكون على ما هو عليه من الكثرة
فاذا اردت ان تعرف سعة حكمة الخالق وقصر علم المخلوقين
فانظر الى ما فى البحار من ضروب السمك ودواب الماء
والاصداف والاصناف التى لا تحصى ولا تعرف منافعها
الا الشئ بعد الشئ يدركه الناس باسباب تحدث

مثل القرمز فانه انما عرف الناس صبغه بان كلبة تجول
على شاطى البحر فوجدت شيئا من الصنف الذى يسمى الحلزون
فاكلته فاختضبت خطمها بدمه فنظر الناس الى حسنه فاتخذوه
صبغا واشباه هذا مما يقف الناس عليه حالا بعد حال
وزمانا بعد زمان قال المفضل حان وقت الزوال فقام
مولاى عليه السلام الى الصلوة وقال بكر الى غدا ان شاء الله
تعالى فانصرفت وقد تضاعف سرورى بما عرفنيه
مبتهجا بما منحنيه حامدا لله على ما آتانيه فبت ليلتى مسرورا
مبتهجا

المجلس الثالث

فلما كان اليوم
الثالث بكرت الى مولاى فاستوذن لى فدخلت فاذن
لى بالجلوس فجلست فقال ع الحمد لله الذى اصطفانا
ولم يصطف علينا اصطفانا بعلمه وايدنا بحلمه
من شذ عنا فالنار ماويه ومن تفيأ بظل دوحتنا فا
لجنة مثواه قد شرحت لك يا مفضل خلق الانسان
وما دبر به وتنقله فى احواله وما فيه من الاعتبار
وشرحت لك امر الحيوان وانا ابتدا الآن بذكر السماء
والشمس والقمر والنجوم والفلك والليل والنهار والحر
والبرد والرياح والجواهر الاربعة الارض والماء والهواء
والنار والمطر والصخر والجبال والطين والحجارة والمعادن

والنبات

والنبات والنخل والشجر وما فى ذلك من الادلة والعبر
فكر فى لون السماء وما فيه من صواب التدبير فان
هذا اللون اشد الالوان موافقة للبصر وتقوية حتى
ان من صفات الاطباء لمن اصابه شى اضر ببصره ادمان
النظر الى الخضرة وما قرب منها الى السواد وقد وصف الحذاق
منهم لمن كل بصره الاطلاع فى اجانة خضراء مملوة ماء فانظر
كيف جعل الله جل وتعالى اديم السماء بهذا اللون الاخضر
الى السواد ليمسك الابصار المنقلبة عليه فلا ينكا فيها بطول
مباشرتها له فصار هذا الذى ادركه الناس بالفكر والروية
والتجارب يوجد مفروغا منه فى الخلقة حكمة بالغة
ليعتبر بها المعتبرون ويفكر فيها الملحدون قاتلهم الله انى
يوفكون فكر يا مفضل فى طلوع الشمس وغروبها لاقامة
دولتى الليل والنهار فلولا طلوعها لبطل امر العالم كله
فلم يكن الناس يسعون فى معايشهم ويتصرفون فى امورهم
والدنيا مظلمة عليهم ولم يكونوا يتهنئون بالعيش
مع فقدهم لذة النور وروحه والارب فى طلوعها
ظاهر مستغنى بظهوره عن الاطناب فى ذكره والزيادة
فى شرحه بل تامل المنفعة فى غروبها فلولا غروبها لم
يكن للناس هدوء ولا قرار مع عظم حاجتهم الى الهدوء

والراحة لسكون ابدانهم وجموم حواسهم وانبعاث القوة
الهاضمة لهضم الطعام وتنفيذ الغذاء الى الاعضاء ثم كان
الحرص سيحملهم من مداومة العمل ومطاولته على ما يعظم يستحملهم
نكايته فى ابدانهم فان كثيرا من الناس لولا جثوم هذا الليل
لظلمته عليهم لم يكن لهم هدء ولا قرار حرصا على الكسب
والجمع والادخار ثم كانت الارض تستحمى بدوام الشمس بضيائها
وتحمى كلما عليها من حيوان ونبات فقدرها الله
بحكمته وتدبيره تطلع وقتا وتغرب وقتا بمنزلة سراج
يرفع لاهل البيت تارة ليقضوا حوائجهم ثم يغيب عنهم
مثل ذلك ليهدؤا ويقروا فصار النور والظلمة مع تضا(دهما)
منقادين متظاهرين على ما فيه صلاح العالم وقوامه
ثم فكر بعد هذا فى ارتفاع الشمس وانحطاطها لاقامة
هذه الازمنة الاربعة من السنة وما فى ذلك من التدبير
والمصلحة وفى الشتاء تعود الحرارة فى الشجر والنبات
فيتولد فيهما مواد الثمار ويستكثف الهواء فينشؤ منه
السحاب والمطر ويشتد ابدان الحيوان وتقوى وفى الربيع
تتحرك وتظهر المواد المتولدة فى الشتاء فيطلع النبات
وتنور الاشجار ويهيج الحيوان للسفاد وفى الصيف يحتدم
الهواء فتنضج الثمار وتتحلل فضول الابدان ويجف وجه

الارض فتتهيأ للبناء والاعمال وفى الخريف يصفو الهواء
وترتفع الامراض وتصح الابدان ويمتد الليل فيمكن فيه
بعض الاعمال لطوله ويطيب الهواء فيه الى مصالح اخرى
لو تقصيت لذكرها لطال فيها الكلام فكر الآن فى تنقل الشمس فى
البروج الاثنى عشر لاقامة دور السنة وما فى ذلك من التدبير
فهو الدور الذى تصح به الازمنة الاربعة من السنة الشتاء
والربيع والصيف والخريف وتستوفيها على التمام وفى هذا
المقدار من دوران الشمس تدرك الغلات والثمار وتنتهى الى
غاياتها ثم تعود فيستأنف النشو والنمو الا ترى ان السنة مقدار
مسير الشمس من الحمل الى الحمل فبالسنة واخواتها يكال
الزمان من لدن خلق الله تعالى العالم الى كل وقت و
عصر من غابر الايام وبها يحسب الناس الاعمار والاوقات
الموقتة للديون والاجارات والمعاملات وغير ذلك
من امورهم وبمسير الشمس يكمل السنة ويقوم حساب
الزمان على الصحة انظر الى شروقها على العالم كيف
دبر ان يكون فانها لو كانت تبزغ فى موضع من السماء
فتقف لا تعدوه لما وصل شعاعها ومنفعتها الى كثير من
الجهات لان الجبال والجدران كانت تحجبها عنها فجعلت
تطلع فى اول النهار من المشرق فتشرق على ما قابلها من

وجه المغرب ثم لا تزال تدور وتغشى جهة بعد جهة حتى
تنتهي الى المغرب فتشرق على ما استتر عنها في اول النهار
فلا يبقى موضع من المواضع الا اخذ بقسطه من المنفعة
منها والارب التي قدرت له ولو تخلفت مقدار عام او
بعض عام كيف كان يكون حالهم بل كيف كان يكون لهم
مع ذلك بقاء افلا يرى كيف الناس هذه الامور الجليلة التي
لم تكن عندهم فيها حيلة فصارت تجري على مجاريها لا تفتل ولا
تتخلف عن مواقيتها لصلاح العالم وما فيه بقاءه استدل
بالقمر ففيه دلالة جليلة يستعملها العامة في معرفة الشهور
ولا يقوم عليه حساب السنة لان دوره لا يستوفي الازمنة
الاربعة ونشو الثمار وتصرمها ولذلك صارت شهور القمر و
سنوه تتخلف عن شهور الشمس وسنيها وصارت الشهر
من شهور القمر ينتقل فيكون مرة بالشتاء ومرة بالصيف
فكر في انارته في ظلمة الليل والارب في ذلك فانه مع الحاجة
الى الظلمة لهدء الحيوان وبرد الهواء على النبات لم يكن صلاح
في ان يكون الليل ظلمة واجبة لا ضياء فيها فلا يمكن فيه
شيء من العمل لانه ربما احتاج الناس الى العمل بالليل لضيق
الوقت عليهم في تقضي الاعمال بالنهار او لشدة الحر وافراطه
فيعمل في ضوء القمر اعمالا شتى كحرث الارض وضرب اللبن

بعض تقضي

وقطع

وقطع الخشب وما اشبه ذلك فجعل ضوء القمر معونة
للناس على معايشهم اذا احتاجوا الى ذلك وانسا للسائرين
وجعل طلوعه في بعض الليل دون بعض ونقص مع ذلك
من نور الشمس وضيائها لكيلا تنبسط الناس في العمل
انبساطهم بالنهار ويمتنعوا من الهدء والقرار فيهلكهم
ذلك وفي تصرف القمر خاصة في مهله ومحاقه وزيادته
ونقصانه وكسوفه من التنبيه على قدرة الله خالقه المصرف
له هذا التصريف لصلاح العالم ما يعتبر به المعتبرون فكر يعتبر
يا مفضل في النجوم واختلاف مسيرها فبعضها لا تفارق
مراكزها من الفلك ولا يسير الا مجتمعه وبعضها مطلقة
تنتقل في البروج وتفترق في مسيرها فكل واحد منها يسير
سيرين نحو المشرق كالنملة التي تدور على الرحا فالرحا
تدور ذات اليمين والنملة تدور ذات الشمال والنملة
مختلفتين في تلك تتحرك حركتين احديهما بنفسها فتتوجه امامها
والاخرى مستكرهة مع الرحا تجذبها الى خلفها فاسئل
الزاعمين ان النجوم صارت على ما هي عليه بالاهمال
من غير عمد ولا صانع لها ما منعها ان تكون كلها راتبة
او تكون كلها متنقلة فان الاهمال معنى واحد فكيف
صار يأتي بحركتين مختلفتين على وزن وتقدير ففي هذا

مختلفتين احدهما عامة مع الفلك نحو المغرب والاخرى خاصة لنفسه

بيان ان مسير الفريقين على ما يسيران عليه بعمد وتدبير
وحكمة وتقدير وليس باهمال كما تزعم المعطلة فان قال
قائل ولم صار بعض النجوم رابتا وبعضها متنقلا قلنا
انها لو كانت رابتة لبطلت الدلالات التي يستدل بها كلها
من تنقل المتنقله ومسيرها في كل برج من البروج كما
قد يستدل على اشياء مما يحدث في العالم بتنقل الشمس
والنجوم في منازلها ولو كانت كلها متنقله لم يكن لمسيرها
منازل تعرف ولا رسم يوقف عليه لانه انما يوقف بسير
المتنقله منها بتنقلها في البروج الرابته كما يستدل بسير
السائر على الارض بالمنازل التي يجتاز عليها ولو كان
تنقلها بحال واحدة لاختلط نظامها وبطلت المآرب
فيها ويساغ لقايل ان يقول ان كينونتها على حال واحدة ولساغ
توجب عليها الاهمال من الجهة التي وصفنا ففي اختلاف
سيرها وتصرفها وما في ذلك من المآرب والمصلحة ابين
دليل على العمد والتدبير فيها فكر في هذه النجوم التي تظهر في بعض
السنة وتحتجب في بعضها كمثل الثريا والجوزا والشعرتين و الشعرابين / الشعريين
سهيل فانها لو كانت باسرها تظهر في وقت واحد لم تكن
لواحد فيها على حياله دلالات يعرفها الناس ويهتدون
بها لبعض امورهم كمعرفتهم الآن بما يكون من طلوع الثور

والجوزا

والجوزا اذا طلعت واحتجابها اذا احتجبت فصار ظهور
كل واحد واحتجابه في وقت غير الوقت الاخر لينتفع الناس
بما يدل عليه كل واحد منها على حدته وكما جعلت الثريا واشباهها
تظهر حينا وتحجب حينا لضرب من المصلحة كذلك جعلت بنات
النعش ظاهرة لا تغيب لضرب اخر من المصلحة فانها بمنزلة الاعلام
التي يهتدي بها الناس في البر والبحر للطرق المجهوله وذلك انها
لا تغيب ولا تتوارى فهم ينظرون اليها متى ارادوا ان يهتدوا
بها الى حيث شاؤوا وصار الامران جميعا على اختلافهما موجهين موجّهين
نحو الارب والمصلحة وفيها مآرب اخرى علامات ودلالات
على اوقات كثيرة من الاعمال كالزراعة والغراس والسفر في
البر والبحر واشياء مما يحدث في الازمنة من الامطار والرياح
والحر والبرد واشياء مما يحدث في الازمنة بها يهتدي السايرون
في ظلمة الليل لقطع القفار الموحشة واللجج الهايلة مع ما في
ترددها في كبد السماء مقبلة ومدبرة ومشرقة ومغربة من
العبر فانها تسير اسرع السير واحثه ارايت لو كانت الشمس و
القمر والنجوم بالقرب منا حتى تبين لنا سرعة سيرها بكنه ما هي
عليه الم تكن ستخطف الابصار بوهجها وشعاعها كالذي ستخطف
يحدث احيانا من البروق اذا توالت واضطرمت في الجو
وكذلك ايضا لو ان اناسا كانوا في قبة مكللة بمصابيح تدور حولهم

دورانا خشينا الحار بابصارهم حتى يجرّوا الوجوههم فانظر
كيف قدر ان يكون في البعد البعيد لكيلا تضرّ في الابصار سيرها
وتنكا فيها وباسرع السرعة لكيلا يتخلف عن مقدار الحاجة
في سيرها وجعل فيها جزء يسير من الضوء ليسد مسدّ الاضواء
اذا لم يكن قمر ويمكن فيه الحركة اذا حدثت ضرورة كما
قد يحدث الحادث على المرء فيحتاج الى التجافي في جوف الليل وان لم
يكن شيء من الضوء يهتدي به لم يستطع ان يبرح مكانه فتأمل
اللطف والحكمة في هذا التقدير حين جعل للظلمة دولة ومدة
لحاجة اليها وجعل خلالها شيء من الضوء للمآرب التي وصفنا
وفكر في هذا الفلك بشمسه وقمره ونجومه وبروجه تدور على
العالم هذا الدوران الدايم بهذا التقدير والوزن لما في اختلاف
الليل والنهار وهذه الازمان الاربعة من التنبيه على الارض
وما عليها من الحيوان والنبات من ضروب المصلحة كالذي اضاف
بينت وتخصت لك آنفا وهل يخفى على ذو لب ان هذا تقدير
مقدر وصواب وحكمة من مقدر حكيم فان قال قايل ان هذا
شيء اتفق ان يكون هكذا فما منعه ان يقول مثل هذا في دولاب
تراه يدور ويسقي حديقة فيها شجر ونبات فترى كل شيء
من آلته مقدرا بعضه يلقى بعضا على ما فيه صلاح تلك
الحديقة وما فيها وبم كان يثبت هذا القول لو قاله وما

ترى الناس كانوا قائلين له لو سمعوه منه افينكر ان يقول في دولاب
خشب مصنوع بحيلة قصيرة لمصلحة قطعة من الارض انه خيش
كان بلا صانع ومقدر ويقدر ان يقول في هذا الدولاب العظم
المخلوق بحكمة يقصر عنها اذهان البشر لصلاح جميع الارض
وما عليها انه شيء اتفق ان يكون بلا صنعة ولا تقدير لو اعتل صنعة
هذا الفلك كما تعتل الآلات التي تتخذ للصناعات وغيرها
اي شيء كان عند الناس من الحيلة في صلاحه فكر
يا مفضل في مقادير النهار والليل كيف وقعت على ما فيه
صلاح هذا الخلق فصار منتهى كل واحد منهما اذا امتد
الى خمس عشرة ساعة لا يجاوز ذلك افرايت لو كان النهار
يكون مقداره مائة ساعة او مائتي ساعة الم يكن في ذلك
بوار كل ما في الارض من حيوان ونبات اما الحيوان فكان
لا يهدأ ولا يقر طول هذه المدة ولا البهايم كانت تمسك عن
الرعي لو دام لها ضوء النهار ولا الانسان كان يفتر عن العمل
والحركة وكان ذلك سيهلكها اجمع ويؤديها الى التلف
واما النبات فكان يطول عليه حر النهار ووهج الشمس حتى
يجف ويحترق وكذلك الليل لو امتد مقدار هذه المدة كان
يعوق اصناف الحيوان عن الحركة والتصرف في طلب
المعاش حتى تموت جوعا وتخمد الحرارة الطبيعية من النبات

حتى يعفن ويفسد كالذى نراه يحدث على النبات اذا كان
فى موضع لا تطلع عليه الشمس اعتبر بهذا الحر والبرد كيف يتعاوران
العالم ويتصرفان هذا التصرف من الزيادة والنقصان والاعتدال
لاقامة هذه الازمنة الاربعة من السنة وما فيهما من المصالح
ثم هما بعد دباغ الابدان التى عليها بقاءها وفيها صلاحها
فانه لولا الحر والبرد وتداولهما الابدان لفسدت واخوت
وانتكثت فكر فى دخول احدهما على الاخر بهذا التدريج والترسل
فانك ترى احدهما ينقص شيئا بعد شىء والاخر يزيد مثل
ذلك حتى ينتهى كل واحد منهما منتهاه فى الزيادة والنقصان
ولو كان دخول احدهما على الاخرى مفاجاة لاضر ذلك
بالابدان واسقمها كما ان احدكم لو خرج من حمام حار الى
موضع البرودة لضره ذلك واسقم بدنه فلم جعل الله عز وجل
هذا الترسل فى الحر والبرد الا للسلامة من ضرر المفاجاة
ولم جرى الامر على ما فيه السلامة من ضر المفاجاة لولا
التدبير فى ذلك فان زعم زاعم ان هذا الترسل فى دخول
الحر والبرد انما يكون لابطاء مسير الشمس فى الارتفاع والانحطاط
سئل عن العلة فى ابطاء مسير الشمس فى ارتفاعها وانحطاطها
فان اعتل فى الابطاء ببعد ما بين المشرقين سئل عن العلة
فى ذلك فلا تزال هذه المسئلة ترقى معه الى حيث رقى

من هذا القول حتى استقر على العمد والتدبير لولا الحر لما كانت
الثمار الجاسية المرة تنضج فتلين وتعذب حتى يتفكه بها رطبة ويابسة
ولولا البرد لما كان الزرع يفرخ هكذا ويريع الريع الكثير الذى
يتسع للقوت وما يرد فى الارض للبذر افلا ترى ما فى الحر والبرد
من عظيم الغناء والمنفعة وكلاهما مع غنائه والمنفعة فيه يولم
الابدان ويمضها وفى ذلك عبرة لمن فكر ودلالة على انه من
تدبير الحكيم فى مصلحة العالم وما فيه وانبهك يا مفضل على
الريح وما فيها الست ترى ركودها اذا ركدت كيف يحدث
الكرب الذى يكاد ان ياتى على النفوس الاصحاء وينهك المرضى — ويحرض
ويفسد الثمار ويعفن البقول ويعقب الوباء فى الابدان والافة
فى الغلات ففى هذا بيان ان هبوب الريح من تدبير الحكيم
فى صلاح الخلق وانبئك عن الهواء بخلة اخرى فان الصوت
اثر يوثره اصطكاك الاجسام فى الهواء والهواء يوديه الى المسامع — مع
والناس يتكلمون فى حوائجهم ومعاملاتهم طول نهارهم وبعض
ليلهم فلو كان اثر هذا الكلام يبقى فى الهواء كما يبقى
الكتاب فى القرطاس لامتلاء العالم منه فكان يكربهم ويفدحهم
وكانوا يحتاجون فى تجديده الى القراطيس لان ما يلقى من الكلام — يفرط — والاستبدال به الى اكثر مما
اكثر مما يكتب فجعل الخلاق الحكيم جل قدسه هذا الهواء — يحتاج اليه فى تجديده
قرطاسا خفيا يحمل الكلام ريث ما يبلغ العالم حاجتهم ثم يمحى

فيعود جديدا نقيا ويحمل ما حمل ابدا بلا انقطاع وحسبك بهذا
النسيم للتي هواء عبره وما فيه من المصالح فانه حيواة هذه
الابدان والممسك لها من داخلها تستنشق منه ومن خارج
بما تباشر من روحه وفيه تطرؤ هذه الاصوات فيؤدي بها
من البعد البعيد وهو الحامل لهذه الروايح ينقلها من موضع الى
موضع الا ترى كيف يأتيك الرايحة من حيث تهب الريح فكذلك
الصوت وهو القابل لهذا الحر والبرد اللذين يتعاقبان على العالم
لصلاحه ومنه هذه الريح الهابة فالريح تروح عن الاجسام
وتزجي السحاب من موضع الى موضع ليعم نفعه حتى يستكثف
فيمطر وتفضه حتى يستخف فيتفشى ويلقح الشجر ويسير الفلك الثمر
وترخي الاطعمه ويبرد الماء وتشب النار وتجفف الاشياء
الندية وبالجملة انها تحيي كلما في الارض فلولا الريح لذوي
النبات ومات الحيوان وحمت الاشياء وفسدت فكر
يا مفضل فيما خلق الله عز وجل عليه هذه الجواهر الاربعة
ليتسع ما يحتاج اليه منها فمن ذلك سعة هذه الارض
وامتدادها فلولا ذلك كيف كانت تتسع لمساكن الناس
ومزارعهم ومراعيهم ومنابت اخشابهم واحطابهم
والعقاقير العظيمة والمعادن الجسيمة غناؤها ولعل من
ينكر هذه الفلوات الخاوية والقفار الموحشة فيقول

ما المنفعة فيها فهي ماوى هذه الوحوش ومحالها ومرعاها
ثم فيها بعد متنفس ومضطرب للناس اذا احتاجوا الى
الاستبدال باوطانهم فكم بيدا وكم فدفد حالت قصورا
وجنانا بانتقال الناس اليها وحلولهم فيها ولولا سعة
الارض وفسحتها لكان الناس كمن هو في حصار ضيق لا
يجد مندوحة عن وطنه اذا احزنه امر يضطره الى الانتقال
عنه ثم فكر في خلق هذه الارض على ما هي عليه حين خلقت
راتبة راكنة فيكون موطنا مستقرا للاشياء فيتمكن الناس
من السعي عليها في مآربهم والجلوس عليها في راحتهم والنوم
لهدؤهم والاتقان لاعمالهم فانها لو كانت رجراجة
متكفيه لم يكونوا يستطيعون ان يتقنوا البناء والتجارة
والصناعة وما اشبه ذلك بل كانوا لا يتهنون بالعيش
والارض ترتج من تحتهم واعتبر ذلك بما يصيب الناس
حين الزلازل على قلة مكثها حتى يصيروا الى ترك منازلهم
والمهرب عنها فان قال قايل فلم صارت هذه الارض
تزلزل قيل له ان الزلزلة وما اشبهها موعظة وترهيب
يرهب بها الناس ليرعوا وينزعوا عن المعاصي وكذلك
ما ينزل بهم من البلاء في ابدانهم يجري في التدبير على ما واموالهم
فيه صلاحهم واستقامتهم ويدخر لهم ان صلحوا من

الثواب والعوض فی الاخرة ما لا يعدله شیء من امور الدنيا
وربما عجل ذلك فی الدنيا اذا كان ذلك فی الدنيا صلاحا للعامة
والخاصة ثم ان الارض فی طباعها الذی طبعها الله عليها باردة
يابسة وكذلك الحجارة فضل يبس فی الحجارة افرايت لو ان اليبس
افرط علی الارض قليلا حتی تكون حجرا صلدا اكانت تنبت هذا
النبات الذی به حيوة الحيوان وكان يمكن بها حرث او بناء افلا
تری كيف نقصت من يبس الحجارة وجعلت علی ما هی عليه من اللين
والرخاوة ولتتهيا للاعتماد ومن تدبير الحكيم جل وعلا فی
خلقه الارض ان مهب الشمال ارفع من مهب الجنوب فلم
جعل الله عز وجل كذلك الا لينحدر المياه علی وجه الارض
فتسقيها وترويها ثم تفيض اخر ذلك الی البحر فكانما يرفع احد
جانبی السطح ويخفض الاخر لينحدر الماء عنه ولا يقوم عليه
كذلك جعل مهب الشمال ارفع من مهب الجنوب لهذه
العلة بعينها ولولا ذلك لبقی الماء متحيرا علی وجه الارض فكان
يمنع الناس من اعمالها ويقطع الطرق والمسالك ثم الماء
لولا كثرته وتدفقه فی العيون والاودية والانهار لضاق
عما يحتاج الناس اليه لشربهم وشرب انعامهم ومواشيهم
وسقی زروعهم واشجارهم واصناف غلاتهم وشرب ما يرده
من الوحوش والطير والسباع وتتقلب فيه الحيتان و

وانما الفرق بينها و
بين الحجارة صح

دواب الماء وفيه منافع اخر انت بها عارف وعن عظم موقعها
غافل فانه سوی الامر الجليل المعروف من غنائه فی احياء
جميع ما علی الارض من الحيوان والنبات يمزج الاشربة
فتلين وتطيب لشاربها وبه تنظف الابدان والامتعة
من الدرن الذی يغشاها وبه يبل التراب فيصلح للاعمال
وبه يكف عادية النار اذا اضطرمت واشرف الناس علی المكروه
وبه يستحم المتعب الكال فيجد الراحة من اوصابه الی اشباه هذا
من المآرب التی تعرف عظم موقعها فی وقت الحاجة اليها فان
شككت فی منفعة هذا الماء الكثير المتراكم فی البحار وقلت ما
الارب فيه فاعلم انه مكتنف ومضطرب ما لا يحصی من اصناف
السمك ودواب البحر ومعدن اللؤلؤ والياقوت والعنبر
واصناف شتی تستخرج من البحر وفی سواحله منابت العود
اليلنجوج وضروب من الطيب والعقاقير ثم هو بعد مركب
الناس ومحمل لهذه التجارات التی تجلب من البلدان البعيدة
كمثل ما يجلب من الصين الی العراق ومن العراق الی العراق
فان هذه التجارات لو لم يكن لها محمل الا علی الظهر لبارت وبقيت
فی بلدانها وايدی اهلها لان اجر حملها كان يجاوز اثمانها
فلا يتعرض احد لحملها وكان يجتمع فی ذلك امران احدهما
فقد اشياء كثيرة تعظم الحاجة اليها والاخر انقطاع معاش

من نجلها وتعيش بفضلها وهكذا الهواء لولا كثرته وسعته لا
ختنق هذا الانام من الدخان والبخار التي يتحير فيه ويعجز عما يجول
الى السحاب والضباب اولا اولا وقد تقدم من صفته ما فيه كفاية
والنار ايضا كذلك فانها لو لم تكن مبثوثة كالنسيم والماء كانت لوكانت ظ
تحرق العالم وما فيه ولم يكن بد من ظهورها في الاحايين لغنا[ئها]
في كثير من المصالح فجعلت كالمخزونة في الاخشاب تلتمس عند
الحاجة اليها وتمسك بالمادة والحطب ما احتيج الى بقائها لئلا
تخبوا فلا هي تمسك بالمادة والحطب فتعظم المؤنة في ذلك ولا
هي تظهر مبثوثة فتحرق كلما هي فيه بل هي على تهيئة وتقدير
اجتمع فيها الاستمتاع بمنافعها والسلامة من ضررها ثم
فيها خلة اخرى وهي انها مما خص به الانسان دون جميع
الحيوان لما له فيها من المصلحة فانه لو فقد النار لعظم ما
يدخل عليه من الضرر في معاشه فاما البهائم فلا تستعمل
النار ولا تستمتع بها ولما قدر الله عز وجل ان يكون هذا
هكذا خلق للانسان كفا واصابع مهياة لقدح النار
واستعمالها ولم يعط البهائم مثل ذلك لكنها اعينت بالصبر
على الجفاء والخلل في المعاش لكيلا ينالها في فقد النار ما ينال
الانسان وانبئك من منافع النار على خلقة صغيرة عظيم
موقعها وهي هذا المصباح الذي يتخذه الناس فيقضون

به حوائجهم ما شاؤا من ليلهم ولولا هذه الخلة لكان الناس
تصرف اعمارهم بمنزلة من في القبور فمن كان يستطيع ان
يكتب او يحفظ او ينسج في ظلمة الليل وكيف كانت حال
من عرض له وجع في وقت من اوقات الليل فاحتاج ان
يعالج ضمادا او سفوفا او شيئا يستشفي به فاما منافعها
في نضج الاطعمة ودفاء الابدان وتجفيف اشياء وتحليل
اشياء واشباه ذلك فاكثر من ان يحصى واظهر من ان يخفى
فكر يا مفضل في الصحو والمطر كيف يعتقبان على هذا العالم
لما فيه صلاحه ولو دام واحد منهما عليه كان في ذلك
فساده الا ترى ان الامطار اذا توالت عفنت البقول والخضر
واسترخت ابدان الحيوان وحصر الهواء فاحدث ضروبا
من الامراض وفسدت الطرق والمسالك وان الصحو اذا
دام جفت الارض واحترق النبات وغيض ماء العيون
والاودية فاضر ذلك بالناس وغلب اليبس على الهواء فاحدث
ضروبا اخرى من الامراض فاذا تعاقبا على العالم هذا التعاقب
اعتدل الهواء ودفع كل واحد منهما غاية الاخر فصلحت الاشياء
واستقامت فان قال قائل ولم لا يكون في شيء من ذلك
مضرة البتة قيل له ليمض ذلك الانسان ويولمه بعض الالم
فيرعوي عن المعاصي فكما ان الانسان اذا سقم بدنه احتاج

الى الادوية المرّة البشعه ليقوّم طباعه ويصلح ما فسد منه
كذلك اذا طغى واشرا حتاج الى ما يعضه ويولمه ليرعوى
ويقصر عن مساويه وينبّه على ما فيه حظّه ورشده ولو
ان ملكا من الملوك قسم فى اهل مملكته قناطير من ذهب
وفضة الم يكن سيعظم عندهم ويذهب له به الصوت
فاين هذا من مطرة روّاء اذ يعمر به البلاد ويزيد فى الغلات
اكثر من قناطير الذهب والفضه فى اقاليم الارض كلها
افلا ترى المطرة الواحدة ما اكبر قدرها واعظم النعمة على
الناس فيها وهم عنها ساهون وربما عاقت عن احدهم
حاجة لا قدر لها فيذمر ويتسخط ايثار الخسيس قدره على
العظيم نفعه جميلا محمود العاقبة وقلة معرفة العظيم الغناء
والمنفعة فيها تامل نزوله على الارض والتدبير فى ذلك فانه
جعل يتحدر عليها من علو ليسقى ما غلظ وارتفع منها فيرويه
ولو كان انما يأتيها من بعض نواحيها لما علا المواضع المشرفة
منها ويقل ما يزرع فى الارض الا ترى ان الذى يزرع سيحا
اقل من ذلك فالامطار هى التى تطبق الارض ~~الم ترى ان~~
التى تزرع هذه البرارى الواسعة وسفوح الجبال وذراها
فتغل الغلة الكثيرة وبها يسقط عن الناس فى كثير من البلدان
مؤنة سياق الماء من موضع الى موضع وما يجرى فى ذلك

فبينهم من التشاجر والتظالم حتى يستأثر بالماء ذووا العزة
والقوة ويحرمه الضعفاء ثم انه حين قدر ان يتحدر على الارض
انحدارا جعل ذلك قطرا شبيها بالرش ليغور فى قعر الارض
فيرويها ولو كان يسكبه انسكابا كان ينزل على وجه الارض
فلا يغور فيها ثم كان يحطم الزرع ويحيى الارض والزرع
القايم وفى نزوله ايضا مصالح اخرى فانه يلين الابدان
ويجلو كدر الهوا فيرتفع الوباء الحادث من ذلك ويغسل
ما يسقط على الشجر والزرع من الداء المسمى اليرقان الى اشباه
هذا من المنافع فان قال قايل وليس قد يكون منه فى بعض
السنين الضرر العظيم الكثير لشدة ما يقع منه او برد يكون
فيه يحطم الغلات وبخورة يحدثها فى الهواء فيولد كثيرا من
الامراض فى الابدان والآفات فى الغلات قيل بلى قد يكون
ذلك الفرط لما فيه من صلاح الانسان وكفه عن ركوب المعاصى
والتمادى فيها فيكون المنفعة فيما يصلح له من دينه ارجح
مما عسى ان يرضى فى ماله انظر يا مُفضّل الى هذه الجبال المركومة
من الطين والحجارة التى يحسبها الغافلون فضلا لا حاجة
اليها والمنافع فيها كثيرة فمن ذلك ان يسقط عليها الثلوج
فيبقى فى قلالها لمن يحتاج اليه ويذوب ما ذاب منه فتجرى منه
العيون الغزيرة التى يجتمع منها الانهار العظام وينبت فيها

بخورة رنظ

ضروب من النبات والعقاقير التي لا ينبت مثلها في السهل
ويكون فيها كهوف ومقابل للوحوش من السباع العادية وتتخذ
منها الحصون والقلاع المنيعة للتحرز من الاعداء وينحت منها
الحجارة للبناء والارحاء ويوجد فيها معادن لضروب من
الجواهر وفيها خلال اخرى لا يعرفها الا المقدر لها في سابق
علمه فكر يا مُفضل في هذه المعادن وما يخرج منها من
الجواهر المختلفة مثل الجص والكلس والجبسين والزرانيخ و
المرتك والقونيا والزيبق والنحاس والرصاص والفضه
والذهب والزبرجد والياقوت والزمرد وضروب الحجارة
وكذلك ما يخرج منها من القار والموميا والكبريت والنفط
وغير ذلك مما يستعمله الناس في مآربهم فهل يخفى على ذي
عقل ان هذه كلها ذخاير ذخرت للانسان في هذه الارض
ليستخرجها فيستعملها عند الحاجة ثم قصرت حيلة الناس (البهايم)
عما حاولوا من صنعتها على حرصهم واجتهادهم في ذلك
فانهم لو ظفروا بما حاولوا من هذا العلم كان لا محالة
سيظهر ويستفيض في العالم حتى تكثر الفضة والذهب
ويسقطا عند الناس فلا يكون لها قيمة ويبطل الانتفاع
بهما في الشرى والبيع والمعاملات ولا كان يجبى السلطان
الاموال ولا يدخرها احد للاعقاب وقد اعطى الناس

مع

مع هذا صنعة الشبه من النحاس والزجاج من الرمل والفضة
من الرصاص والذهب من الفضة واشباه ذلك مما لا مضرة
فيه فانظر كيف اعطوا ارادتهم فيما لا ضرر فيه ومنعوا ذلك
فيما كان ضارا لهم لو نالوه ومن اوغل في المعادن انتهى
الى واد عظيم يجري منصلتا بماء غزير لا يدرك غوره ولا حيلة
في عبوره ومن ورائه امثال الجبال من الفضة تفكر الآن
في هذا من تدبير الخالق الحكيم فانه اراد جل ثناؤه ان يري
العباد بقدرته وسعة خزائنه ليعلموا انه لو شاء ان يمنحهم
كالجبال من الفضة لفعل لكن لا صلاح لهم في ذلك لانه — لانه
كان فيكون فيها كما ذكرنا سقوط هذا الجوهر عند
الناس وقلة انتفاعهم به واعتبر ذلك بانه قد يظهر
الشيء الطريف مما يحدثه الناس من الاواني والامتعة
فما دام عزيزا قليلا فهو نفيس جليل آخذ الثمن فاذا
فشى وكثر في ايدي الناس سقط عندهم وخست قيمته
ونفاسة الاشياء من عزتها فكر يا مُفضل في هذا
النبات وما فيه من ضروب المآرب فالثمار للغذاء
والاتبان للعلف والحطب للوقود والخشب لكل شيء
من انواع النجارة وغيرها واللحاء والورق والاصول
والعروق والصموغ لضروب من المنافع ارايت لو كنا

تجد الثمار التي نغتذي بها مجموعة على وجه الارض ولم تكن
تنبت على هذه الاغصان الحاملة لها كم كان يدخل علينا
من الخلل في معاشنا وان كان الغذاء موجودا فان المنافع
بالخشب والحطب والالواح والابواب وساير ما عددناه كثيرة
عظيمة قدرها جليل موقعها هذا مع ما في النبات من التلذذ
بحسن منظره ونضارته التي لا يعدلها شي من مناظر العالم
وملاهيه فكر يا مُفضّل في هذا الريع الذي جعل في الزرع
فصارت الحبة الواحدة تخلو مايتة حبة واكثر واقل وكان
يجوز ان يكون الحبة تاتي بمثلها فلم صارت تريع هذا الريع
الا ليكون في الغلة متسع لما يرد في الارض من البذر وما
يتقوت الزراع الى ادراك زرعها المستقبل الا ترى ان الملك
لو اراد عمارة بلد من البلدان كان السبيل في ذلك ان
يعطي اهله ما يبذرونه في ارضهم وما يقوتهم الى ادراك
زرعهم فانظر كيف تجد هذا المثال قد تقدم في تدبير
الحكيم فصار الزرع يريع هذا الريع ليفي بما يحتاج اليه
للقوت والزراعة وكذلك الشجر والنبت والنخل يريع
الريع الكثير فانك ترى الاصل الواحد من حوله فراخه
امر عظيم فلم كان كذلك الا ليكون فيه ما يقطعه
الناس ويستعملونه في مآربهم وما يرد فيغرس في الارض

ولو كان الاصل منه يبقى منفردا لا يفرخ ولا يريع لما امكن
ان يقطع منه شي لعمل ولا لغرس ثم كان ان اصابته آفة
انقطع اصله فلم يكن منه خلف تامل نبات هذه الحبوب
من العدس والماش والباقلا وما اشبه ذلك فانها
تخرج في اوعية مثل الخرايط لتصونها وتحجبها من الآفات
الى ان تشتد وتستحكم كما قد يكون المشيمة على الجنين لهذا
المعنى بعينه فاما البر وما اشبهه فانه يخرج مدرجا في قشور
صلاب على رؤسها امثال الاسنة من السنبل ليمنع الطير
من البر والحبوب قيل له بلى على هذا قدر الامر فيها لان الطير
خلق من خلق الله وقد جعل الله تبارك وتعالى له فيما
تخرج الارض حظا ولكن حصنت الحبوب بهذه الحجب لئلا
يتمكن الطير منها كل التمكن فيعبث فيها ويفسد الفساد
الفاحش فان الطير لو صادف الحب بارزا ليس عليه شي
يحول دونه لاكب عليه حتى ينسفه اصلا فكان يعرض من
ذلك ان يبشم الطير فيموت ويخرج الزراع من زرعه
صفرا فجعلت عليه هذه الوقايات لتصونه فينال الطاير
منه شيئا يسيرا يتقوت به ويبقى اكثره للانسان
فانه اولى به اذ كان هو الذي كدح فيه وشقي به وكان
الذي يحتاج اليه اكثر مما يحتاج اليه الطير تامل الحكمة

منه شيء على الزراع فا[illegible] الطعم

في خلق الشجر واصناف النبات فانها لما كانت تحتاج الى
الغذاء الدائم كحاجة الحيوان ولم يكن لها افواه كافواه الحيوان
ولا حركة تنبعث بها لتناول الغذاء جعلت اصولها مركوزة في
الارض لتنزع منها الغذاء فتؤديه الى الاغصان وما عليها
من الورق والثمر فصارت الارض كالام المربية لها وصارت
اصولها التي هي كالافواه ملتقمة للارض لتنزع منها الغذاء
كما يرضع اصناف الحيوان امهاتها الا ترى الى عمد الفساطيط و
الخيم كيف تمد بالاطناب من كل جانب لتثبت منتصبة فلا
تسقط ولا تميل فهكذا تجد النبات كله له عروق منتشرة
في الارض ممتدة الى كل جانب لتمسكه وتقيمه ولولا ذلك
كيف كان يثبت هذا النخل الطوال والدوح العظام في الريح
العاصف فانظر الى حكمة الخلقة كيف سبقت حكمة الصناع
فصارت الحيلة التي تستعملها الصناع في ثبات الفساطيط
والخيم متقدمة في خلق الشجر لان خلق الشجر قبل صنعة الفساطيط
والخيم الا ترى عمدها وعيدانها من الشجر فالصناعة مأخوذة
من الخلقة تأمل يا مفضل خلق الورق فانك ترى في الورقة
شبه العروق مبثوثة فيها اجمع فمنها غلاظ ممتدة في طولها
وعرضها ومنها دقاق تتخلل تلك الغلاظ منسوجة نسجا دقيقا
معجما لو كان مما يصنع بالايدي كصنعة البشر لما فرغ من ورق

شجرة

شجرة واحدة في عام كامل ولاحتيج الى آلات وحركة وعلاج
وكلام فصار يأتي منه في ايام قلائل من الربيع ما يملأ الجبال
والسهل وبقاع الارض كلها بلا حركة ولا كلام الا بالارادة
النافذة في كل شيء والامر المطاع واعرف مع ذلك العلة في
تلك العروق الدقاق فانها جعلت تتخلل الورقة باسرها
لتسقيها وتوصل الماء اليها بمنزلة العروق المبثوثة في البدن
لتوصل الغذاء الى كل جزء منه وفي الغلاظ منها معنى آخر
فانها تمسك الورقة بصلابتها ومتانتها لئلا تنهتك و
تتمزق فترى الورقة شبيهة بورقة معمولة بالصنعة من
خرق قد جعلت فيها عيدان ممدودة في طولها وعرضها
لتتماسك فلا تضطرب فالصناعة تحكي الخلقة وان كانت
لا تدركها على الحقيقة فكر في هذا العجم والنوى والعلة
فيه فانه جعل في جوف الثمرة ليقوم مقام الغرس ان عاق
دون الغرس عائق كما يحرز الشيء النفيس الذي تعظم الحاجة
اليه في مواضع اخر فان حدث على الذي في بعض المواضع منه
حادث وجد في موضع آخر ثم هو بعد يمسك بصلابته رخاوة
الثمار ورقتها ولولا ذلك لتشدخت وتفسخت واسرع اليه
الفساد وبعضه يؤكل ويستخرج دهنه فيستعمل منه ضروب من
المصالح وقد تبين لك موضع الارب في العجم والنوى فكر

الآن فى هذا الذى يحدث فوق النواة من الرطبة وفوق العجم
من العنبه فما العلة فيه ولماذا يخرج فى هذه الهيئة وقد كان
يمكن ان يكون مكان ذلك ما ليس فيه ماكل كمثل ما يكون فى
السرو والدلب وما اشبه ذلك فلم صار يخرج فوقه هذه
المطاعم اللذيذة الا ليستمتع بها الانسان فكر فى ضروب من التدبير
فى الشجر فانك تراه يموت فى كل سنة موتة فيحتبس الحرارة الغريزية
فى عوده ويتولد فيه مواد الثمار ثم تحيا وتنتشر فتأتيك بهذه
الفواكه نوعا بعد نوع كما تقدم اليك انواع الاطعمة التى تعالج الاخبصة
بالايدى واحدا بعد واحد فترى الاغصان فى الشجر تتلقاك
بثمارها حتى كانها تناولكها عن يد وترى الرياحين تلقاك
فى افنانها كانها تحييك بانفسها فلمن هذا التقدير الا لمقدر حكيم تفك
حكيم وما العلة فيه الا تفكه الانسان بهذه الثمار
والانوار والعجب من اناس جعلوا مكان الشكر على النعم جحود
المنعم بها اعتبر بخلق الرمانة وما ترى فيها من اثر العمد والتدبير
فانك ترى فيها كامثال التلال من شحم مركوم فى نواحيها
وحبا مرصوفا رصفا كنحو ما ينضد بالايدى وترى الحب
مقسوما وكل قسم منها ملفوفا بلفايف من حجب منسوجة اعجب اقساما
النسج والطفه وقشره يضم ذلك كله فمن التدبير فى هذه
الصنعة انه لم يكن يجوز ان يكون حشو الرمانة من الحب
وحده وذلك ان الحب لا يمد بعضه بعضا فجعل ذلك الشحم

[illegible]

لف بتلك اللفايف لتضمه وتمسكه فلا يضطرب وغشى فوق
ذلك المستهقة ليصونه ويحصنه من الآفات فهذا قليل بالقشرة المستحصفه
من كثير من وصف الرمانة وفيه اكثر من هذا لمن اراد
الاطناب والتذرع فى الكلام ولكن فيما ذكرت لك كفاية
فى الدلالة والاعتبار فكر يا مفضل فى حمل اليقطين الضعيف
مثل هذه الثمار الثقيلة من الدباء والقثاء والبطيخ وما
فى ذلك من التدبير والحكمة فانه حين قدر ان يحمل مثل
هذه الثمار جعل نباته منبسطا على الارض ولو كان ينتصب
قائما كما ينتصب الزرع والشجر لما استطاع ان يحمل مثل
هذه الثمار الثقيلة ولينقصف قبل ادراكها وانتهائها
الى غايتها فانظر كيف صار يمتد على وجه الارض ليلقى عليها
ثمارها فتحملها عنه فترى الاصل من القرع والبطيخ مفترشا
للارض وثمارها مبثوثة عليها وحواليه كانه هرة ممتدة
وقد اكتنفتها اجراؤها لترضع منها وانظر كيف صارت
الاصناف توافى فى الوقت المشاكل لها من حمارة الصيف
ووقدة الحر فتلقاها النفوس بانشراح وتشوق اليها ولو
كانت توافى فى الشتاء لوافقت من الناس كراهة لها
واقشعرارا منها مع ما يكون فيها من المضرة للابدان الا
ترى انه ربما ادرك شئ من الخيار فى الشتاء فيمتنع الناس

يامفضل صح

من اكله الا الشره الذى لا يمتنع من اكل ما يضره ويتوخم
معده فكر فى النخل فانه لما صار فيه اناث يحتاج الى التلقيح
جعلت فيه ذكورة للقاح من غير غراس فصار الذكر من
النخل بمنزلة الذكر من الحيوان الذى يلقح الاناث لتحمل
وهو لا يحمل تأمل خلقة الجذع كيف هو فانك تراه كالمنسوج
نسجا من غير خيوط ممدودة كالسدى واخرى معه معترضة
كاللحمة كنحو ما ينسج بالايدى وذلك ليشتد ويصلب ولا يتقصف
من حمل القنوان الثقيلة وهز الرياح العواصف اذا صار
نخله وليتهيأ للسقوف والجسور وغير ذلك مما يتخذ منه اذا
صار جذعا وكذلك ترى الخشب مثل النسج فانك ترى بعضه
مداخلا بعضا طولا وعرضا كتداخل اجزاء اللحم وفيه مع ذلك
متانة ليصلح لما يتخذ منه من الآلات فانه لو كان مستحصفا
كالحجارة لم يمكن ان يستعمل فى السقوف وغير ذلك مما يستعمل
فيه الخشبة كالابواب والاسرة والتوابيت وما اشبه
ذلك ومن جسيم المصالح فى الخشب انه يطفوا على الماء
فكل الناس يعرف هذا منهم وليس كلهم يعرف جلالة الامر فيه
فلولا هذه الحلة كيف كانت هذه السفن والاظراف تحمل امثال
الجبال من الحمولة وانى كان ينال الناس هذا الرفق وخفة المونة
فى حمل التجارات من بلد الى بلد كانت تعظم المونة عليهم فى
حملها حتى يلقى كثير مما يحتاج اليه فى بعض البلدان مفقودا

اصلا

اصلا او عسرا وجوده فكر فى هذه العقاقير وما خص بها
كل واحد منهما من العمل فى بعض الادواء فهذا يغور فى
المفاصل فيستخرج الفضول الغليظة مثل الشيطرج وهذه
ينزف المرة السوداء مثل الافتيمون وهذا ينفى الرياح مثل
السكبينج وهذا يحلل الاورام واشباه هذا من افعالها
فمن جعل هذه القوى فيها الا من خلقها للمنفعة ومن فطن
الناس بها الا من جعل هذا فيها ومتى كان يوقف على
هذا منها بالعرض والاتفاق كما قال قائلون وهب الانسان
فطن لهذه الاشياء بذهنه ولطيف رويته وتجاربه فالبهائم
كيف فطنت لها حتى صار بعض السباع يتداوى من جراحه
ان اصابته ببعض العقاقير فيبرا وبعض الطير يحتقن من الحصر يصيبه
بماء البحر فيسلم واشباه هذا كثير ولعلك تشكك فى هذا
النبات النابت فى الصحارى والبرارى حيث لا انس ولا انيس
فتظن انه فضل لا حاجة اليه وليس كذلك بل هو طعم لهذه
الوحوش وحبه اشياء تعالج به الابدان واخرى تدبغ به الجلود
واخرى تصبغ به الامتعة واشباه هذا من المصالح السى تعلم
ان من اخس النبات واحقره هذا البردى وما اشبهها
فيها مع هذا من ضروب المنافع فقد يتخذ من البردى القراطيس
التى يحتاج اليها الملوك والسوقة والحصر التى يستعملها كل صنف

رظ
وهب

علف الطير وعوده وانما يحصد ويستعمله الناس

من الناس وليعمل منه العلف التى يوقى بها الاوانى ويجعله
حشوا بين الظروف فى الاسباط لكيلا تعيب وتنكسر واشباه
هذا من المنافع فاعتبر بما ترى من ضروب المآرب فى صغير
الخلق وكبيره وبماله قيمة وما لا قيمة له واخس من هذا
واحقره الزبل والعذرة التى اجتمعت فيها الخساسة والنجاسة
معا وموقعها من الزروع والبقول والخضر اجمع الموقع الذى لا
يعدله شئ حتى ان كل شئ من الخضر لا يصلح ولا يزكوا الا بالزبل
والسماد الذى يستقذره الناس ويكرهون الدنو منه واعلم
انه ليس منزلة الشئ على حسب قيمته بل هما قيمتان مختلفتان بسوقين
وربما كان الخسيس فى سوق المكتسب نفيسا فى سوق العلم فلا
تستصغر العبرة فى الشئ لصغر قيمته فلو فطنوا طالبوا الكيميا
لما فى العذرة لاشتروها بانفس الاثمان وغالوا بها قال
المفضل وحان وقت الزوال فقام مولاى الى الصلوة وقال
بكر الى غدا ان شاء الله فانصرفت وقد تضاعف سرورى بما
عرفنيه مبتهجا بما آتانيه حامدا لله على ما منحنيه فبت ليلتى
مسرورا   قال المفضل فلما كان يوم الرابع بكرت
الى مولاى فاستوذن لى فامرنى بالجلوس فجلست فقال
عليه السلام منا التحميد والتسبيح والتعظيم والتقديس للاسم
الاقدم والنور الاعظم العلى العلام ذى الجلال والاكرام

والاسم

والاسم المخزون والعلم المكنون ومفنى الانام ومفنى العوالم
والدهور وصاحب السر المستور والغيب المحظور والاسم
المخزون والعلم المكنون وصلواته وبركاته على مبلغ وحيه
ومؤدى رسالته الذى ابتعثه بشيرا ونذيرا وداعيا
الى الله باذنه وسراجا منيرا ليهلك من هلك عن بينة
ويحيى من حى عن بينة فعليه وعلى آله من بارئه الصلوات
الطيبات والتحيات الزاكيات الناميات وعليه وعليهم
السلام والرحمة والبركات فى الماضين والغابرين ابد
الآبدين ودهر الداهرين وهم اهله ومستحقه قد شرحت
لك يا مفضل من الادلة على الخلق والشواهد على صواب
التدبير والعمد فى الانسان والحيوان والنبات والشجر وغير
ذلك ما فيه عبرة لمن اعتبر وانا اشرح لك الآن الآفات
الحادثة فى بعض الازمان التى اتخذها اناس من الجهال ذريعة
الى جحود الخلق والخالق والعمد والتدبير وما انكرت المعطلة   العمد
والمنانية من المكاره والمصائب وما انكروه من الموت و
الفناء وما قاله اصحاب الطبايع ومن زعم ان كون الاشياء
بالعرض والاتفاق ليتسع ذلك القول فى الرد عليهم قاتلهم الله
انى يؤفكون اتخذ اناس من الجهال هذه الآفات الحادثة
فى بعض الازمان كمثل الوباء واليرقان والبرد والجراد ذريعة

الى جحود الخلق والتدبير والخالق فيقال في جواب ذلك انه
ان لم يكن خالق ومدبر فلم لا يكون ما هو اكثر من هذا
وافضع فمن ذلك ان يسقط السماء على الارض وتهوى الارض
فتذهب سفلا وتتخلف الشمس عن الطلوع اصلا وتجف
الانهار والعيون حتى لا يوجد ماء للشفة وتركد الريح حتى
تخم الاشياء وتفسد ويفيض ماء البحر على الارض فيغرقها
ثم هذه الآفات التي ذكرناها من الوباء والجراد وما اشبه
ذلك ما بالها لا تدوم وتمتد حتى تجتاح كلما في العالم بل تحدث
في الاحايين ثم لا تلبث ان ترفع افلا ترى ان العالم يصان
ويحفظ من تلك الاحداث الجليلة التي لو حدث عليه شئ منها
كان فيه بواره ويلدغ احيانا بهذه الآفات اليسيرة لتاديب ويلدغ
الناس وتقويمهم ثم لا تدوم هذه الآفات بل تكشف عنهم
عند القنوط منهم فتكون وقوعها بهم موعظة وكشفها
عنهم رحمة وقد انكرت المعطلة ما انكرت المنانية من المكاره
والمصايب التي تصيب الناس فكلاهما يقول ان كان للعالم
خالق رؤف رحيم فلم يحدث فيه هذه الامور المكروهة والقايل
بهذا القول يذهب الى انه ينبغي ان يكون عيش الانسان
في هذه الدنيا صافيا من كل كدر ولو كان هكذا كان
الانسان سيخرج من الاشر والعتو الى ما لا يصلح في دين

ودنيا

ودنيا كالذي ترى كثيرا من المترفين ومن نشا في الجدة
والامن يخرجون اليه حتى ان احدهم ينسى انه بشر وانه
مربوب وان ضرا يمسه او ان مكروها ينزل به او انه يجب
عليه ان يرحم ضعيفا او يواسي فقيرا او يرثي لمبتلى او يتحنن
على ضعيف او يتعطف على مكروب فاذا عضته المكاره ووجد
مضضها اتعظ وابصر كثيرا مما كان جهله وغفل عنه ورجع
الى كثير مما كان يجب عليه والمنكرون لهذه الامور
المؤذية بمنزلة الصبيان الذين يذمون الادوية المرة البشعة
ويتسخطون من المنع من الاطعمة الضارة ويتكرهون
الادب والعمل ويحبون ان يتفرغوا للهو والبطالة و
ينالوا كل مطعم ومشرب ولا يعرفون ما تؤديهم اليه البطالة
من سوء النشو والعادة وما تعقبهم الاطعمة اللذيذة الضارة
من الادواء والاسقام وما لهم في الادب من الصلاح وفي
الادوية من المنفعة وان شاب ذلك بعض الكراهة فان
قالوا ولم لم يكن الانسان معصوما من المساوي حتى لا يحتاج
يلدغه ر الى ان يلذعه بهذه المكاره قيل اذا كان يكون غير محمود على
حسنة ياتيها ولا مستحق للثواب عليها فان قالوا وما كان
يضره ان لا يكون محمودا على الحسنات مستحقا للثواب بعد ان
يصير الى غاية النعيم واللذة قيل لهم اعرضوا على امرء صحيح الجسم

والعقل ان يجلس منعما ويكفى كلما يحتاج اليه بلا سعى
ولا استحقاق فانظر هل تقبل نفسه ذلك بل تستجدونه
بالقليل مما يناله بالسعى والحركة اشد اغتباطا وسرورا منه
بالكثير مما يناله بغير الاستحقاق وكذلك نعيم الآخرة ايضا
يكمل لاهله بان ينالوه بالسعى فيه والاستحقاق له فالنعمة
على الانسان فى هذا الباب مضاعفة فان اعدّ له الثواب
الجزيل على سعيه فى هذه الدنيا وجعل له السبيل الى ان ينال بسعى سعيه
واستحقاق فيكمل له السرور والاغتباط بما يناله منه فان
قالوا اوليس قد يكون من الناس من يركن الى ما نال من خير
وان كان لا يستحقه فما الحجة فى منع من رضى ان ينال نعيم
الاخرة على هذه الجملة قيل لهم ان هذا باب لو صح للناس لخرجوا
الى غاية الكلبة والضراوة على الفواحش وانتهاك المحارم فمن
كان يكون نفسه عن فاحشة او يتحمل المشقة فى باب من ابواب
البر لو وثق بانه صائر الى النعيم لا محالة او من كان يأمن على
نفسه واهله وماله من الناس لو لم يخافوا الحساب والعقاب
فكان ضرر هذا الباب سينال الناس فى هذه الدنيا قبل الاخرة
فيكون فى ذلك تعطيل العدل والحكمة معا وموضع للطعن على
التدبير بخلاف الصواب ووضع الامور غير مواضعها ويتعلق
هؤلاء بالآفات التى تصيب الناس فتعم البر والفاجر او يبتلى بها

والبر

والبر يسلم الفاجر منها فقالوا كيف يجوز هذا فى تدبير الحكيم (بها البر ويسلم)
وما الحجة فيه فيقال لهم ان هذه الآفات وان كانت تنال
الصالح والطالح جميعا فان الله جعل ذلك صلاحا للصنفين
كليهما اما الصالحون فان الذى يصيبهم من هذا يردهم نعم ربهم (يذكرهم)
عندهم فى سالف ايامهم فيحدوهم ذلك على الشكر والصبر
واما الطالحون فان مثل هذا اذا نالهم كسر شرتهم وردعهم (وردعهم)
عن المعاصى والفواحش وكذلك يجعل لمن سلم منهم من الصنفين
صلاحا فى ذلك اما الابرار فانهم يغتبطون بما هم عليه من
البر والصلاح ويزدادون فيه رغبة وبصيرة واما الفجار
فانهم يعرفون رأفة ربهم وتطوله عليهم بالسلامة من غير (رحمة)
استحقاق فيحضهم ذلك على الرأفة بالناس والصفح عمن اساء
اليهم ولعل قائلا يقول ان هذه الآفات التى تصيب الناس فى (تصيب)
اموالهم فما قولك فيما يبتلون به فى ابدانهم فيكون
فى تلفهم كمثل الحرق والغرق والسيل والخسف فيقال
لهم ان الله جعل فى هذا ايضا صلاحا للصنفين جميعا
اما الابرار فلما لهم فى مفارقة هذه الدنيا من الراحة من
تكاليفها والنجاة من مكارهها واما الفجار فلما لهم فى ذلك
من تمحيص اوزارهم وحبسهم عن الازدياد منها وجملة القول
ان الخالق تعالى ذكره بحكمته وقدرته قد يصرف هذه الامور

كلها الى الخيرة والمنفعه فكما انه اذا قطعت الريح شجرة او قطعت
نخلة اخذها الصانع الرفيق واستعملها فی ضروب من المنافع
فكذلك يفعل المدبر الحكيم فی الآفات التی تنزل بالناس فی ابدانهم
واموالهم فيصيّرها جميعا الى الخيرة والمنفعة فان قال ولم
لا تحدث على الناس قيل له لكيلا يركنوا الى المعاصی من طول السلامة
فيبالغ الفاجر فی ركوب المعاصی ويفتر الصالح عن الاجتهاد فی
البر فان هذين الامرين جميعا يغلبان على الناس فی حال الخفض
والدعه وهذه الحوادث التی تحدث عليهم تردعهم وتنبههم
على ما فيه رشدهم فلو اخلوا منها لغلوا فی الطغيان والمعصية
كما غلى الناس فی اول الزمان حتى وجب عليهم البوار بالطوفان
وتطهير الارض منهم ومما يعتقده الجاحدون للعمد والتقدير
الموت والفنا فانهم يذهبون الى انه ينبغی ان يكون الناس
مخلدين فی هذه الدنيا مبرّائين من الآفات فينبغی ان نساق
هذا الامر الى غايته فننظر ما محصوله افرايت لو كان كل من
دخل العالم ويدخله يبقون ولا يموت احد منهم الم تكن الارض
تضيق بهم حتى تعوزهم المساكن والمزارع والمعاش فانهم و
الموت يفنيهم اولا او لا يتنافسون فی المساكن والمزارع حتى ينشب
بينهم فی ذلك الحروب ويسفك فيهم الدما فكيف كانت تكون
حالهم لو كانوا يولدون ولا يموتون وكان يغلب عليهم الحرص

والشره

والشره وقساوة القلوب فلو وثقوا بانهم لا يموتون لما
قنع الواحد منهم بشی يناله ولا افرج لاحد عن شی يساله
ولا سلا عن شی مما يحدث عليه ثم كانوا يملون الحياة وكل بسل
شی من امور الدنيا كما قد يمل الحياة من طال عمره حتى
يتمنى الموت والراحة من الدنيا فان قالوا انه كان ينبغی ان يتمنى
يرفع عنهم المكاره والاوصاب حتى لا يتمنوا الموت ولا يشتاقوا
اليه فقد وصفنا ما كان يخرجهم اليه من العتو والاشر
الحامل لهم على ما فيه فساد الدين والدنيا وان قالوا انه
كان ينبغی ان لا يتوالدوا كی لا تضيق عنهم المساكن والمعاش
قيل لهم اذا كان يحرم اكثر هذا الخلق دخول العالم والاستمتاع
بنعم الله ومواهبه فی الدارين جميعا اذا لم يدخل العالم الا قرن
واحد لا يتوالدون ولا يتناسلون فان قالوا كان يخلق فی
ذلك القرن الواحد من الناس مثل ما خلق ويخلق الى انقضاء
العالم لهم رجع الامر الى ما ذكرنا من ضيق المساكن والمعاش يقال له
عنهم ثم لو كانوا لا يتوالدون ولا يتناسلون لذهب موضع
الانس بالقرابات وذوی الارحام والانتصار بهم عند الشدائد
وموضع تربية الاولاد والسرور بهم ففی هذا دليل على ان
كلما تذهب اليه الاوهام سوى ما جرى به التدبير
خطأ وسفاه من الراي والقول ولعل طاعنا يطعن على

التدبير من جهة اخرى فيقول كيف يكون ههنا تدبير ونحن نرى
الناس في هذه الدنيا من عزيز فالقوى يظلم ويغصب والضعيف
يظلم ويسام الخسف والصالح فقير مبتلى والفاسق معافى موسع
عليه ومن ركب فاحشة او انتهك محرما لم يعاجل بالعقوبة
فلو كان في العالم تدبير لجرت الامور على القياس القايم وكان
الصالح هو المرزوق والطالح هو المحروم وكان القوى يمنع من
ظلم الضعيف والمنتهك للمحارم يعاجل بالعقوبة فيقال في جواب
ذلك ان هذا لو كان هكذا لذهب موضع الاحسان الذي فضل
به الانسان على غيره من الخلق وحمل النفس على البر والعمل الصالح
احتسابا للثواب وثقة بما وعد الله منه ولصار الناس بمنزلة
الدواب التي تساس بالعصا والعلف ويلمع لها بكل واحد
منهما ساعة فساعة فتستقيم على ذلك ولم يكن احد يعمل على
يقين بثواب وعقاب حتى كان هذا يخرجهم عن حد الانسية
الى حد البهايم ثم لا تعرف ما غاب ولا تعمل الا على الحاضر وكان
يحدث من هذا ايضا ان يكون الصالح انما يعمل الصالحات للرزق
والسعة في هذه الدنيا ويكون الممتنع من الظلم والفواحش انما
يعف عن ذلك لترقب عقوبة تنزل به من ساعته حتى يكون
افعال الناس كلها تجرى على الحاضر لا يشوبها شيء من اليقين
بما عند الله ولا يستحقون ثواب الاخرة والنعيم الدايم فيها مع

دليله
الخسف

ان

ان هذه الامور التي ذكرها الطاعن من الغنى والفقر والعافية
والبلاء ليست تجاريه على خلاف قياسه بل قد تجرى على ذلك
احيانا والامر المفهوم فقد ترى كثيرا من الصالحين يرزقون
المال لضروب من التدبير وكيلا يسبق الى قلوب الناس ان الكفار
هم المرزوقون والابرار هم المحرومون فيؤثرون الفسق على
الصلاح وترى كثيرا من الفساق يعاجلون بالعقوبة
اذا تفاقم طغيانهم وعظم ضررهم على الناس وعلى انفسهم كما
عوجل فرعون بالغرق وبخت نصر بالتيه وبلبيس بالقتل وان
امهل بعض الاشرار بالعقوبة واخر بعض الاخيار بالثواب
الى الدار الاخرة لاسباب تخفى على العباد لم يكن هذا مما
يبطل التدبير فان مثل هذا قد يكون من ملوك الارض
ولا يبطل تدبيرهم بل يكون تأخيرهم ما اخروه وتعجيلهم
ما عجلوه داخلا في صواب الرأي والتدبير واذا كانت الشواهد
تشهد وقياسهم يوجب ان للاشياء خالقا حكيما قادرا
فما يمنعه ان يدبر خلقه فانه لا يصلح في قياسهم ان
يكون الصانع يهمل صنعته الا باحدى ثلاث خلال
اما عجز واما جهل واما شرارة وكل هذه محال في صنعته
عز وجل تعالى ذكره وذلك ان العاجز لا يستطيع ان يأتي
هذه الخلايق الجليلة العجيبة والجاهل لا يهتدى لما فيها

يصح

من الصواب والحكمة والتدبير لا يتطاول الخلقها وانشائها
واذا كان هذا هكذا وجب ان يكون الخالق لهذه الخلايق
يدبرها لا محالة وان كان لا تدرك كنه ذلك التدبير ومخارجه
فان كثيرا من تدبير الملوك لا تفهمه العامة ولا تعرف اسبابه
لانها لا تعرف دخلة امر الملوك واسرارهم فاذا عرف سببه
وجد قايما على الصواب والشاهد والمحنة ولو شككت في
والشاهد المحنة رظ
بعض الادوية والاطعمة فيتبين لك من جهتين او ثلاث انه
حار او بارد الم تكن ستقضي عليه بذلك وتنفي الشك فيه
عن نفسك فما بال هولاء الجهلة لا يقضون على العالم بالخلق
والتدبير مع هذه الشواهد الكثيرة واكثر منها ما لا
يحصى كثرة لو كان نصف العالم وما فيه مشكلا صوابه
لما كان من حزم الراي وسمت الادب ان يقضي على العالم
بالاهمال لانه كان في النصف الاخر وما يظهر فيه من الصواب
والاتقان ما يردع الوهم عن التسرع الى هذه القضية فكيف
وكلما فيه اذا فتش وجد على غاية الصواب حتى لا يخطر بالبال
شي الا وجد ما عليه الخلقة اصح واصوب منه واعلم يا مفضل
ان اسم هذا العالم بلسان اليونانية الجاري المعروف عندهم
قوسموس وتفسيره الزينة وكذلك سمته الفلاسفة ومن
ادعى الحكمة افكانوا يسمونه بهذا الاسم الا لما راوا فيه من التقدير

والنظام فلم يرضوا ان يسموه تقديرا ونظاما حتى سموه زينة
ليخبروا انه مع ما هو عليه من الصواب والاتقان على غاية
الحسن والبهاء اعجب من قوم لا يقضون على صناعة الطب بالخطا
وهم يرون الطبيب يخطي ويقضون على العالم بالاهمال ولا يرون
شيئا منه مهملا بل اعجب من اخلاق من ادعى الحكمة حتى
جهلوا مواضعها في الخلق فارسلوا السنتهم بالذم للخالق جل
وعلا بل العجب من المخذول ماني حين ادعى علم الاسرار وعمي
عن دلايل الحكمة في الخلق نسبه الى الخطا ونسب
خالقه الى الجهل تبارك الحليم الكريم واعجب منهم جميعا المعطلة
الذين راموا ان يدرك بالحس ما لا يدرك بالعقل فلما اعوزهم
ذلك خرجوا الى الجحود والتكذيب فقالوا ولم لا يدرك
بالعقل قيل لانه فوق مرتبة العقل كما لا يدرك البصر ما
هو فوق مرتبته فانك لو رايت حجرا يرتفع في الهواء علمت
ان راميا رمى به فليس هذا العلم من قبل البصر بل من قبل
العقل لان العقل هو الذي يميزه فيعلم ان الحجر لا يذهب علوا
من تلقاء نفسه افلا ترى كيف وقف البصر على حده فلم يتجاوزه
فكذلك يقف العقل على حده من معرفة الخالق فلا يعدوه بيصرونه
ولكن يعقله بعقل اقر ان فيه نفسا ولم يعاينها ولم يدركها
بحاسة من الحواس وعلى حسب هذا ايضا نقول ان العقل

يعرف بما يوجبه له الاحاطة بصفته فان قالوا فكيف يكلف الخالق من جهته توجب عليه الاقرار ولا يعرفه
العبد الضعيف معرفته بالعقل اللطيف ولا يحيط به قيل لهم انما
كلف العباد من ذلك ما في طاقتهم ان يبلغوه وهو ان يوقنوا به
ويقفوا عند امره ونهيه ولم يكلفوا الاحاطة بصفته كما ان الملك
لا يكلف رعيته ان يعلموا اطويل ام قصير ابيض هو ام اسمر وانما يعلموا
يكلفهم الاذعان لسلطانه والانتهاء الى امره الا ترى ان رجلا
لو اتى باب الملك فقال اعرض على نفسك حتى اتقصى معرفتك والا
لم اسمع لك كان قد احل نفسه العقوبة فكذا القائل انه لا يقر
بالخالق سبحانه حتى يحيط بكنهه متعرض لسخط فان قالوا وليس
قد نصفه فنقول هو العزيز الحكيم الجواد الكريم قيل لهم كل
هذه صفات اقرار وليست صفات احاطة فانا نعلم انه
حكيم ولا نعلم بكنه ذلك منه وكذلك قدير وجواد وسائر صفاته
كما قد نرى السماء ولا ندري ما جوهرها ونرى البحر ولا ندري اين
منتهاه بل فوق هذا المثال بما لا نهاية له لان الامثال كلها
تقصر عنه ولكنها تقود العقل الى معرفته فان قالوا ولم يختلف
فيه قيل لهم لقصر الاوهام عن مدى عظمته وتعديها اقدارها
في طلب معرفته وانها تروم الاحاطة به وهي تعجز عن ذلك
وما دونه فمن ذلك هذه الشمس التي تراها تطلع على العالم
ولا يوقف على حقيقة امرها ولذلك كثرت الاقاويل فيها

واختلفت

واختلفت الفلاسفة المذكورون في وصفها فقال بعضهم
هو فلك اجوف مملو نارا له فم يجيش بهذا الوهج والشعاع
وقال آخرون هو سحابة وقال آخرون هو جسم زجاجي يقبل
نارية في العالم ويرسل عليه شعاعها وقال آخرون هو صفو
لطيف ينعقد من ماء البحر وقال آخرون هو اجزاء كثيرة مجتمعة
من النار وقال آخرون هو من جوهر خامس سوى الجواهر الاربع
ثم اختلفوا في شكلها فقال بعضهم هي بمنزلة صفيحة عريضة
وقال آخرون هي كالكرة المدحرجة وكذلك اختلفوا في مقدارها
فزعم بعضهم انها مثل الارض سواء وقال آخرون بل هي اقل من
ذلك وقال آخرون بل هي اعظم من الجزيرة العظيمة وقال اصحاب
الهندسة هي اضعاف الارض مائة وسبعون مرة ففي اختلاف
هذه الاقاويل منهم في الشمس دليل على انهم لم يقفوا على الحقيقة
من امرها واذا كانت هذه الشمس التي يقع عليها البصر ويدركها
الحس قد عجزت العقول عن الوقوف على حقيقتها فكيف ما لطف
عن الحس واستتر عن الوهم فان قالوا ولم استتر قيل لهم لم يستتر
بحيلة يخلص اليها كمن يحتجب عن الناس بالابواب والستور وانما
معنى قولنا استتر انه لطف عن مدى ما تبلغه الاوهام كما
لطفت النفس وهي خلق من خلقه وارتفعت عن ادراكها بالنظر
فان قالوا ولم لطف وتعالى عن ذلك علوا كبيرا كان

ذلك خطاء من القول لانه لا يليق بالذى هو خالق كل
شئ الا ان يكون مباينا لكل شئ متعاليا عن كل شئ سبحانه و
تعالى فان قالوا كيف يعقل ان يكون مباينا لكل شئ متعاليا قيل
لهم الحق الذى تطلب معرفته من الاشياء هو اربعة اوجه فاولها
ان ينظر اموجود هو ام ليس بموجود والثانى ان يعرف ما هو فى ذاته
وجوهره والثالث ان يعرف كيف هو وما صفته والرابع ان
يعلم لماذا هو ولاية علة فليس من هذه الوجوه شئ يمكن المخلوق
ان يعرفه من الخالق حق معرفته غير انه موجود فقط فاذا
قلنا وكيف وما هو فممتنع علم كنهه وكمال المعرفة به واما لماذا
هو فساقط فى صفة الخالق لانه جل ثناءه علة كل شئ وليس شئ
بعلة له ثم ليس علم الانسان بانه موجود موجب له ان نعلم
ما هو وكيف هو كما ان علمه بوجود النفس لا يوجب ان يعلم ما
هى وكيف هى وكذلك الامور الروحانيه اللطيفة فان قالوا
فانتم الآن تصفون من قصور العلم عنه وصفا حتى كانه
غير معلوم قيل له هو كذلك من جهة اذا رام العقل معرفة
كنهه والاحاطة به وهو من جهة اخرى اقرب من كل
قريب اذا استدل عليه بالدلايل الشافيه فهو من جهة كا
لواضح لا يخفى على احد وهو من جهة كالغامض لا يدركه
احد وكذلك العقل ايضا ظاهر بشواهده ومستور بذاته

فاما

فاما اصحاب الطبايع فقالوا ان الطبيعة لا تفعل شيئا
لغير معنى ولا عما فيه تمام الشئ فى طبيعته وزعموا ان الحكمة
تشهد بذلك فقيل لهم فمن اعطى الطبيعة هذه الحكمة
والوقوف على حدود الاشياء بلا مجاوزة لها وهذا قد تعجز عنه
العقول بعد طول التجارب فان اوجبوا للطبيعة الحكمة والقدرة
على مثل هذه الافعال فقد اقروا بما انكروا لان هذه هى صفات
الخالق وان انكروا ان يكون هذا للطبيعة فهذا وجه الخلق
يهتف بان الفعل للخالق الحكيم وقد كان من القدماء طائفة
انكروا العمد والتدبير فى الاشياء وزعموا ان كونها بالعرض والا
تفاق وكان مما احتجوا به هذه الآيات التى تكون على غير مجرى العرف
والعادة كالانسان يولد ناقصا او زايدا اصبعا او يكون
المولود مشوها مبدل الخلق فجعلوا هذا دليلا على ان كون
الاشياء ليس بعمد وتقدير بل بالعرض كيف ما اتفق ان يكون
وقد كان ارسطاطاليس رد عليهم فقال ان الذى يكون بالعرض
والاتفاق انما هو شئ يأتى فى الفلتة لاعراض تعرض للطبيعة
فتزيلها عن سبيلها وليس بمنزلة الامور الطبيعية الجارية
على شكل واحد جريا دايما متتابعا وانت ترى يا مفضل
اصناف الحيوان ان يجرى اكثر ذلك على مثال ومنهاج واحد
كالانسان يولد وله يدان ورجلان وخمس اصابع كما عليه

الجمهور من الناس فاما يولد على خلاف ذلك فانه لعلة
تكون في الرحم او في المادة التي ينشو منها الجنين كما يعرض في
الصناعات حين يتعمد الصانع الصواب في صنعته فيعوق
دون ذلك عايق في الادات او في الآلة التي يعمل فيها الشيء فقد
يحدث مثل ذلك في اولاد الحيوان الاسباب التي وصفنا فياتي
الولد زايدا او ناقصا او مشوها ويسلم اكثرها فياتي سويا
لا علة فيه فكما ان الذي يحدث في بعض اعمال الاعراض لعلة
فيه لا توجب عليها جميعا الاهمال وعدم الصانع كذلك
ما يحدث على بعض الافعال الطبيعية لعايق يدخل عليها
لا يوجب ان يكون جميعها بالعرض والاتفاق فقول من قال
في الاشياء ان كونها بالعرض والاتفاق من قبل ان شيا
منها ياتي على خلاف الطبيعة بعرض يعرض له خطاء وخطل
فان قالوا ولم صار مثل هذا يحدث في الاشياء قيل لهم
ليعلم انه ليس كون الاشياء باضطرار من الطبيعة تجري
اكثر ذلك على مجرى ومنهاج معروف ويزول احيانا عن
ذلك لاعراض تعرض لها فيستدل بذلك على انها مصرفة
مدبرة فقيرة الى ابداء الخالق وقدرته في بلوغ غايتها واتمام
عملها تبارك الله احسن الخالقين يا مفضل خذ ما آتيتك
واحفظ ما منحتك وكن لربك من الشاكرين ولآلائه من الحامدين

ولا يمكن ان يكون سواه كما
قال القائلون بل هو تقدير
وعمد من خالق حكيم اذ جعل
الطبيعة م

ولاوليائه من المطيعين فقد شرحت لك من الادلة على الخلق
والشواهد على صواب التدبير والعمد قليلا من كثير وجزاء
من كل فتدبره وفكر فيه واعتبر به فقلت بمعونتك يا مولاي
اقوى على ذلك وابلغه ان شاء الله فوضع يده على صدري فقال
احفظ بمشية الله ولا تنس ان شاء الله فخررت مغشيا فلما
افقت قال كيف ترى نفسك يا مفضل فقلت قد استغنيت
بمعونة مولاي وتاييده عن الكتاب الذي كتبته وصار ذلك
بين يدي اقراه من كفي ولمولاي الحمد والشكر كما هو اهله و
مستحقه فقال يا مفضل فرغ قلبك واجمع اليك ذهنك وعقلك
وطمانينتك فسالقي اليك من علم ملكوت السموات والارض وما
خلق الله بينهما وفيهما من عجايب خلقه واصناف الملائكة
وصفوفهم ومقاماتهم ومراتبهم الى سدرة المنتهى وساير الخلق
من الجن والانس الى الارض السابعة السفلى وما تحت الثرى
حتى يكون ما وعيته جزء من اجزاء انصرف اذا شئت مصاحبا
مكلوا فانت منا بالمكان الرفيع وموضعك من قلوب
المومنين موضع الماء من الصدى ولا تسئلن عما وعدتك
حتى احدث لك منه ذكرى قال المفضل فانصرفت من عند مولاي
بما لم ينصرف احد بمثله لقد صادف الفراغ من تمشق هذه الكتابة
في عصر يوم الخميس خمس وعشر شهر شعبان من شهور سنة ثلث وستين والف

كاتما





